بيير لامازيير

مسافر إلى سورية

ترجمة:
د. فوزية الزوباري

مسافر إلى سورية

دراسات

المـــؤلـــف :بيير لامازيير
عنوان الكتـاب :مسافر إلى سورية
ترجـــمـــة :د . فوزية الزوباري
النـاشـــر :المدى
الطبـعـة الأولى :٢٠٠٩
الحقوق محفوظة

Author:Pierr Lamazière
Title:Partant Pour La Syrie
Translator : Fawzia Al-Zobari
Al- Mada : P.C.
First Edition : 2009
Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية- دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

بيير لامازيير

مسافر إلى سورية

ترجمة : د. فوزية الزوباري

مقدمة
فرنسا في سورية / شهادة كاتب فرنسي

بقلم: خيري الذهبي

حين نزل الفرنسيون على الساحل الشامي لم يكن ذاك النزول بالأمر المفاجئ لهم، فقد كان واحداً من أهم أحلامهم التي لم تنقطع منذ الحروب الفرنجية في القرن الحادي عشر والتي استمرت مع لويس التاسع الذي أسموه فيما بعد بالقديس لويس. والحق أن المادة البشرية الكبرى للمحاربين الفرنجة الذين أصر الغرب على تسميتهم بالصليبيين، وأصررنا حسب تواريخنا المعاصرة لها على تسميتهم بالفرنجة، فلم يكونوا حسب مؤرخينا إلا حلقة من صراع طويل بين شرقي المتوسط وغربيه، أو شماليه وجنوبه حسب التعابير المعاصرة، وما تصريح غورو الشهير أمام قبر صلاح الدين، والذي كان فيه بعض المراهقة والولدنة، إلا التعبير العميق عن الجرح الغائر في وجدان تاريخ الغرب منذ هزيمة محاولاتهم احتلال الشام أثناء الحروب الإقطاعية الفرنجية، والتي كان مادتها الأساسية الفرنسيون والنورمان، أما بقية شعوب أوربة، بمن فيهم الإنكليز والملك الشهير ريتشارد قلب الأسد، فلم يكونوا إلا كومبارس في تلك الدراما التاريخية الكبرى.

على أية حال حين نزل الفرنسيون في أوائل القرن العشرين على الساحل الشامي، كان في وجدان الكثير منهم استعادة تلك الفترة المجيدة في تاريخهم الفروسي، والذي نتج عنها نشوء الكثير من الإقطاعيين والنبلاء الذين عادوا إلى أوربة، وظل فخر أسرهم الأكبر أن حفيدهم بعد عشرين جيلاً ظل يفخر بأن جده كان من سرجاندية الحروب الصليبية؛ والسرجاندي هو الرقيب بالتعبير المعاصر، أو الرتبة الأدنى عسكرياً، ومع ذلك فقد كان هذا فخرهم الأكبر.

والغريب أن علاقة الشرق بالتاريخ، رغم تبجح الشرقيين الكبير بالتاريخ والتاريخية، هذه العلاقة كانت دائماً علاقة هشة أشبه بالمنعدمة ماعدا ما يستطيع تأجيج الإحن المذهبية أو الخلافية. ففي الحروب الصليبية التي خرج منها الشرق العربي الإسلامي منتصراً، وخرج منها الغرب مهزوماً، تضادّت الرؤية لهذه الملحمة تماماً، فالشرق الإسلامي ليس فيه الآن أسرة واحدة أو سلالة واحدة تدَّعي أنها من أحفاد أولئك الذين شاركوا وانتصروا في الحروب الصليبية. لقد اختفت تلك الملحمة تماماً من ذاكرة الناس والبسطاء ولولا سيرة الملك الظاهر، وهي سيرة مفبركة للتمجيد والمبالغة في تمجيد واحد من الجند أو الضباط الذين شاركوا في تلك الحروب ثم صار سلطاناً فيما بعد هو بيبرس، لاختفت تلك الملحمة نهائياً من ذاكرتنا.

أما في الوجدان الغربي التاريخي والشعبي، فليس لديهم إلا التغني بتلك الملحمة، وبطولاتها، ورجالاتها والرغبة في استعادتها.

هل تكفي هذه المقدمة لفهم مقولة غورو المتبجحة أمام ضريح صلاح الدين، أو لفهم ما صرخ به الجنرال البريطاني اللنبي وهو يدخل القدس

بعد عدة قرون من طرد الصليبيين ليعلن: «الآن فقط انتهت الحروب الصليبية»!...

أليس في هذه الجملة تبجح سيذكرنا به فوكوياما حين أعلن عن نهاية التاريخ وكأن انتصار الغرب سيكون أبدياً، وهزيمة الشرق ستكون أبدية.

على أية حال حين نزل الفرنسيون والإنكليز على الساحل الشامي، ورأوا خروج الجيوش العثمانية المهزومة إلى الأناضول، لم يفكروا في إنجاز الوعد الذي قطعه ماكماهون للشريف حسين، ولورنس للملك فيصل، بل كان أول ما فكروا فيه هو اقتسام الكعكة الشامية. وحين قرروا تقسيمها جعلوا القسمة تكراراً للتقسيم الذي وصلت إليه الشام أثناء الحروب الصليبية، بل لقد التزموا بها التزاماً مثيراً للريبة، فإمارة أورفة الصليبية، أعطيت إلى الأتراك، أما إمارة أنطاكية الصليبية فقد شكلت منها دولة الساحل الجبلية، ثم التفتوا إلى إمارة طرابلس الصليبية، فصنعوا منها دولة لبنان الكبير. وكتابنا (الرحلة إلى سورية) صريح في نوايا غورو المتديِّن جداً بالنسبة لصنع دولة في إمارة طرابلس - هي «دولة لبنان الكبير»، أما إمارة الكرك الصليبية، فقد صنع منها تشرشل دولة عبر الأردن هذه التي سيتغير اسمها فيما بعد إلى شرقي الأردن، ثم إلى المملكة الأردنية الهاشمية، والتي ستضم الضفة الغربية من الأردن إلى الشرقية، ثم ستكتفي بعد سلب العدو الصهيوني الضفة الغربية منها بالضفة الشرقية من نهر الأردن، ثم كان هناك مملكة بيت المقدس الصليبية التي شكلوا منها دولة فلسطين تحت الاحتلال البريطاني والتي ستصبح بعد نكبة ١٩٤٨ دولة إسرائيل، التي لن تلبث أن تتمدد

كما تمددت مملكة بيت المقدس الصليبية، لتحتل أجزاء من سورية والأردن ولبنان وتحتل قطاع غزة كله...إلخ..

على الجانب الداخلي من بلاد الشام شكل الفرنسيون دولة حلب ودولة دمشق... أكان هذا بالمصادفة، أم أنه كان استعادة لتاريخ فروسي رومانسي صليبي كان يحنُّ إليه بعض المتدينين المتشددين مثل غورو وويغان، والذين اعتقدوا أن السماء تقودهم لإعادة الضالين إلى جادة الحق!!!

المهم... هذا الكتاب يقدم ولأول مرة ضمن مقروءاتنا، وأعتقد أن الزمن وقد مر هذا المرور الذي يقارب القرن صار يسمح لنا بقراءة كيف كان الآخر، وكيف كان يقرؤنا، وكيف كان يرانا. وهذا أمر أعتقد أنه شديد الفائدة، إذ سيكشف لنا مدى الخطوات التي خطوناها منذ ذلك الزمن الإقطاعي المذهبي الذي أورثته لنا المجمِّدة العثمانية ـ المملوكية في حركة المجتمع، حيث حولت المجتمع إلى كتل ثلج متجمدة متجاورة غير قادرة على التذاوب والتخالط وبناء مجتمع موحد، كما فعلت فرنسا الحافلة بالأعراق والمذاهب والصراعات الدموية أكثر من سورية بعشرات المرات، ولكن العلم، والاقتصاد، والسوق الموحدَّة، والدولة المركزية استطاعت أن تذيب هذا كله لتصنع الهوية الفرنسية التي نراها الآن.

في هذا الكتاب سنقرأ نكاتاً كثيرة منها مثلاً أولئك الذين تنطحوا لعرش سورية مثل الأمير المصري الذي اشترى لقب الإمارة من الشريف حسين المفلس، فصار بفلوسه أميراً، وصار يطالب بعرش سورية. وسنرى أمراء المناطق والمحافظات وهم يحلمون بإمارات مستقلة. وسنرى

الموظفين الفرنسيين الساعين إلى فصل مناطق الشام عن بعضها لتشكيل دويلات يكونون رؤساء لها، كما حصل في حلب، أيام حاكمها ريكلو، والذي حصل على تواقيع هائلة تطالب بفصل حلب وتشكيل دولة منها، ولكن حين كان الاستفتاء الحقيقي أيام المندوب السامي دو جوفنيل كان تصويت الحلبيين صارخاً وصريحاً: الوحدة الشامية كاملة، ولا أقل منها!!! وخسر ريكلو حلمه الذي سيسخر منه كاتبنا كثيراً.

ولنستمع إلى كاتبنا يصف بلاد الشام حين سافر مع دو جوفنيل من بيروت إلى حلب: «بلاد خائرة القوى منهكة. إنما قابلة كما يقولون لإنتاج القمح بكثرة إذا ما زرع هذا القمح يوماً وفق الأساليب الحديثة حيث لم يعد يوجد في سفوح الجبال المحيطة بها إلا سهول شاسعة محمرة عارية، مبذورة بالحجارة تجتازها أرتال الأيل، وحيث ترتفع بعيداً مجمَّع الأكواخ المدببَّة السقوف، المبنية من الطين والتي يسكنها عائلات الرعاة الفقيرة».

هذه البلاد.. أراد ريكلو ابن عائلة (أونيزيم) وابن عائلة (اليزيه). والذي يريد أن يكون عين فرنسة على الطريق التجاري إلى فارس والهند... أراد لها أن تكون مملكته المستقلة عن سورية وبلاد الشام، هذا الرجل الذي حلم بالتشبه بهارون الرشيد لم يكن إذن مجرد حالم، بل كان صاحب المشروع التجاري بين البحر المتوسط وفارس والهند...

ثم لنستمع إلى كاتبنا الساخر: كان (السلطان) دو جوفنيل، ثم يعلن في الحاشية ساخراً أليس وريث سلاطين بني عثمان.

ريكلو حين يستقبل دو جوفنيل يقدم إليه مجموعة من العملاء، ولنقرأ: كانوا يعتمرون الكوفية الحريرية المزخرفة المثبتَّة بالعقال المثلَّث

المذَّهب، وقد وضعوا فوقها عباءات أكثر تطريزاً من ألبسة الكرادلة... كانت لهم وجوه من البرونز، وأعين من المينا ولا شيء يضاهي النبل الذي كانوا من خلاله ينحنون أمام ممثل الانتداب، ثم يرسمون بيدهم الملوِّحة في الفضاء التحية الشرقية: أحمل في قلبي، وعلى شفتي، وعلى جبهتي غبار حذائك!!!

ولكن الاستفتاءات الشعبية الحقيقية ستقلب كل ما هيأوا، وستعلن حلب، التي سيصورها لامازيير بأنها حلب الغامضة، حلب الأسواق والأحياء الشعبية، ستعلن أنها لن تقبل هؤلاء العملاء وأنها لا تريد أقل من بلاد الشام وطناً، ولنستمع إليه:

«مدينة السكان الأصليين المدينة العربية بامتياز، إنها مبنية فوق تعرج معقد السراديب التي تنتهي إلى القلعة، والتي كانت تسمح بتموينها أثناء الحصارات الطويلة التي قاومتها. تفحصت جزءاً بسيطاً من سراديبها محاولاً الحصول على سرها ولكنها ظلت الغامضة أبداً. . . . . .» ويكمل: «مئة ألف شخص، وربما أكثر، يعيشون منعزلين هنا دون قيد نفوس، دون إحصاء أو قيود. إنهم ربما لم يأتوا أبداً أو تقريباً إلى المدينة التي تعرفونها، ولا أحد يستطيع بالطبع، القول ما الذي يفكرون به أو ما الذي ينوونه. . . هاهو أمامكم السر الآسيوي والإسلامي».

وأطلق السر الآسيوي الإسلامي رأيه في الاستفتاء الذي أصر على الوحدة وعلى استنكار العملاء المتعاونين....

«وهكذا حملوا نصف قنطار من الاعتراضات المزيَّنة بالتواقيع الجميلة بخط اليد الأسود ممهورة بأختام بنفسجية اللون يعلن أن حلب

ودمشق يشكلان جسماً واحداً له الدماغ نفسه، والأحشاء نفسها، وأن لبِّ الضلع من اللحم نفسه ولا يريد أن ينفصل عن العظم».

ويكمل لامازيير ساخراً: «في هذه المغامرة لم يفقد السيد ريكلو الحظ بالحصول على ترقية فقط، بل فقدت فرنسة شيئاً من هيبتها وهذا أكثر خطراً».

المهم في هذا الكتاب سنرى بالإضافة إلى صور المتعاونين مع المستعمر ـ المنتدب الفرنسي الكالحة، هذه الصور التي لن نراها في حلب فقط، بل في كل المحافظات، ولدى كل الأطياف.

سنراهم جنوداً في الجيش المحتل، ثم ضباطاً، ومتعاونين، وسنرى أيضاً الرافضين، الحالمين بوطن كانوا يظنونه قيد الأصابع، فهم ما تمردوا ورموا بالنير العثماني إلا حالمين بوطن مستقل ديمقراطي، عادل، ولكنهم وجدوا أنفسهم فجأة فريسة لاحتلال آخر، ونفاق آخر، وادعاء بالتحضير آخر، ولكن الانتداب لا تقوم به عصبة الأمم، بل رجال، مادة بشرية، ومادة فرنسة البشرية كانت خليطاً من استعماريي الهند الصينية وأفريقية، والذين تعاملوا مع سورية على أنها مستعمرة أخرى، كانوا خليطاً من كهنة صرحاء ومتخفين، وكانوا يظنون أن آمالهم مهمة سماوية دينية هي هداية الضالين إلى دين فرنسة الحق.... وكانوا أيضاً يضمون بعض المفكرين والإنسانيين، والذين كانوا ينظرون إلى الانتداب نظرة جدية، فهو الطريق إلى تعليم أمة أبعدت عن الحضارة لقرون، تعليمها الإدارة الحديثة للدولة والجيش والمالية والاقتصاد والصناعة وحقوق الإنسان، ولكن المستعمر، والكاهن غلبا على الإنساني.

المهم في هذا الكتاب شهادة، وهي شهادة نحن بحاجة إليها لاختتام

سلسلة الكتب التي قدَّمناها عن تاريخ دمشق منذ الفتح الإسلامي وعبر المملوكي، فالعثماني وختاماً بالفرنسي.

شهادة سنقرأ فيها رأياً ربما عادلاً لغربي هو كاتبنا بيير لامازيير وهو صحفي وروائي فرنسي ربما لم يحرز شهرة كبيرة، ولكنه كان مغامراً عادلاً محايداً قدَّم لنا رؤية هي الأولى للثورة العربية في جبل العرب من العين الأخرى، العين الفرنسية التي قدَّمت لنا سراي من وجهة نظر لا نعرفها، فنحن لا نعرف عنه إلا أنه من قصف دمشق وأحرق حي سيدي عامود، والذي سيصبح شارع الحريقة، وسنعرف ميشو الذي هزم هزيمة مذلّة في جبل العرب، سنعرفه الآن ليس كقائد عسكري بل كمتسلق بيروقراطي ارتقى بالواسطة، وتسلّم قيادة بالواسطة، وهزم بالأصالة... سنرى إدخال فرنسة بيوت روبير في صورة حزينة ساخرة متأملة.. وسنرى يأس كاتبنا من المغامرة الفرنسية ـ في سورية ـ كلها، وأنها محكومة بالإخفاق والفشل فهؤلاء الناس كما يسميهم أناس مثقفون، متعلمون لديهم تاريخ يعتزون به، تاريخ من التجارة والثقافة والإدارة، تاريخ يرقى إلى ما قبل ميلاد المسيح بعدة آلاف من السنين.

ولنستمع إلى لامازيير يصف أهالي دمشق: «هؤلاء هم محامون وأطباء، ووزراء قدماء للملك فيصل كانوا قد أتموا دراستهم في أوربة وهم متمكنون من لغتنا، ويعرفون شخصياتنا السياسية، يقرأون صحفنا ويفهمونها من أوائل أسئلتها... أخذ هؤلاء على عاتقهم مهمة تغذية تعصب الأمراء والباشوات والمشايخ، وتحريضهم على المقاومة...» وإذا كان المرء يستطيع أن يشكَّ بالتضامن الحاصل بين دمشق والمغرب والمصريين الوطنيين وأنقرة أتاتورك فقد كان يكفيه أن يزور أي مقهى،

أو مخزن تجاري، أو منزل أمير ليرى في صدر البيت صور سعد زغلول وعبد الكريم الخطابي، ومصطفى كمال، وأبطال الإسلام الذين واجهوا الغرب.

هذه هي الصورة التي يقدمها لامازيير لسورية، والتي نقرأ فيها المقاومة والرغبة في الاستقلال والحصول على الدولة الوطنية وهاهو يكمل: «لقد تجاوزوا خلافاتهم الإقليمية والمذهبية، واتجهوا إلى هدف وطني واحد هو إعطاء الانتداب صيغة معاهدة إن عقدت بين فرنسة وسورية، فقد تثبت الحقوق والعلاقات والواجبات المتبادلة بين الأمتين».

كتاب وضع في العام ١٩٢٦ بعد أفول الثورة السورية الكبرى والتي شارك فيها معظم أطياف الشعب السوري، هذه الثورة التي استمرت بأشكال مختلفة انتهت بالاستقلال عام ١٩٤٦ ....

إنه التاريخ بصفحاته البيض والسود، إنه التاريخ بوديانه ونجوده، إنه التاريخ بمآسيه وأفراحه.

ملاحظة: رموز الحواشي والتعليقات:
الأرقام للمؤلف. و* للمترجمة.

مسافر إلى سورية

في الأسبوع الذي سبق سفري إلى سورية، اعتدت أن ألتقي عدداً من الأصدقاء ممن كنتُ قد حدثتهم عن السفر الذي نويت القيام به. وقد أنشدوا جميعهم على وجه التقريب، البيتين الأولين من أنشودة الملكة أورتانس. حتّى إنَّ أحد البحاثة كان قد أعطاني، وللمرة الأولى، لذّة الاستماع إلى المقطع بكامله.

كنت معجباً بمدى اطلاع كلٍ منهم على هذا البلد، وخجلاً جداً حِيَالَ قلّة معرفتي به، وحينما حثثت محاوريّ، ليس من قبيل اختبارهم، ولكن قصد التَنَوُّر ومعرفة المزيد، تبين لي أن كل ما يستندون إليه من معرفة ينحصر في مقطع، أو في جزء من مقطع من أنشودة الملكة أورتانس أي أن معرفتهم تلك كانت تبدأ بأنشودة، وتنتهي بها.

عَـلاَوَة على ذلك: افترض رجل ذو مكانة أنَّ من الممكن الذهاب، دون شك، من باريس إلى بلاد الآلهة سورية بقطار ذي عربة للنوم، سألني هذا الرجل إن كنت أفكر بالسفر عن طريق البر أو البحر؟ ومُنحتُ قسيمة حَرَّرَ عليها أحدهم عنوان السيد X... ، بيروت، تركية، آسية، ثم سئلت إنْ كنت قد تقدمت إلى المصرف للتزود بكتاب اعتماد مصرفي. وعليه، وجدت نفسي أقلَّ خجلاً من جهلي، وانطلقت، مرتاح القلب،

للحصول على علْمٍ كان ينقصني كما كان ينقص كثيراً من مواطني بلدي.

كانت سورية بالنسبة إليهم، وإليّ آنذاك، ولأربعة أخماس الفرنسيين، تقبع في مكان ما من العَالَم... هذا البلد الذي استقرَّ بنا الحال فيه بعد الحرب، فلم يكن مستعمرة ولم يكن تحت الحماية، إنما كان بلداً يتخبط في صعوبات بالغة الخطر. وهناك في البعيد حيث لقي جنود فرنسيون مصرعهم أخيراً دون أن يُعلم لماذا وكيف، هذا كل شيء... لكن هذا قليل.

كيف! ها قد مضت سنوات ست على قبولنا الوصاية على سورية، سنوات ست ونحن نرسل إلى هذا البلد مفوضين سامين، وإداريين، وموظفين من جميع الفئات، قواداً، وضباطاً، وجنوداً. ومع فداحة فقرنا، كنا ننفق مبالغ طائلة، ولا أحد، تقريباً يعرف، على وجه الدقة، أين يقع ذلك البلد، وماذا يحدث هناك، أو ماذا نفعل هناك، أو ماذا نأمل أن نفعل هناك؟ ولا يعرف أنّ إحدى أكبر الإدارات الفرنسية ما تزال تجهل أن هذا البلد كان قد سلخ من الإمبراطورية العثمانية القديمة.

بيروت، تركية، آسية!

ولكي يُثَارُ فضولنا، بالالتفات إلى الأراضي البعيدة، كان ينبغي أن تحدث هناك كارثة، وأن يسجل جنرال ما فيها هزيمة لإعلامنا، وأن يُقتَل هناك أبناؤنا.

عند ذلك نحس، وتبدأ الأوراق بنشر بعض الرسائل الرسميّة، أو بعض المقالات. ويُفتَحُ نقاش عشوائي في المجلس النيابي، بعدها تهدأ النفوس. ولا يفكر أحد بعد ذلك،في سورية.

مع ذلك، وفي عمق حوض البحر المتوسط الشرقي، وبعد شاطئ طويل، متقطع تتضارب فيه الأمواج وتحف به المدن وآثار مدن كانت في الماضي لامعة ببريق لا مثيل له، كانت تمتد منطقة تشكل بالنسبة إلينا، موضوعاً مشروعاً، فيما لو كنا محظوظين ومَهَرَة، وكان يمكن أن تقدم لنا فوائد جمة. ولكنَّا، من جهة أخرى، لو تابعنا تكديس الأخطاء والعيوب، لخاطرنا بفقدان جزء من مكانتنا التي بدأت في التراجع.

أراض شاسعة، أكثر غنى بالذكريات التاريخية والدينية والأسطورية من أي بلاد أخرى، أراض تمنح أجمل إمكانيات للتجارة، وللصناعة، وللزراعة، ولتربية المواشي، لكنها في الحاضر، خربة، مضطربة بسبب الحرب التي أنتجت الثورة، والقمع، أما سكانها، الذين ينتمون إلى عشرة أجناس، وإلى ثلاثين عقيدة فهم يتمزقون فيما بينهم، ليشكلوا فوضى حقيقية*.... هكذا تبدو سورية، هذه، التي تعهدنا إحلال الهدوء، والنظام، والازدهار فيها، هناك، لم نلق ! إلا الخذلان.

لماذا ؟

آه! لأننا، ومن دون شك، استخدمنا وسائل سيئة، وأرسلنا رجالاً لم يكونوا جميعهم أكفياء، ولا مهيئين للمهمة الموكلة إليهم. لكن، ولأسباب أخرى أيضاً: وعلى هذه الأرض المباركة والملعونة في آن معاً، حيث تتقاطع جميع طرق أوروبة وأفريقية باتجاه آسية، وحيث ولدت وبادت كثير من الحضارات، وتوالت ضروبٌ من الغزوات، حتّى صار الإنسان أكثر من أي مكان آخر، هو ذئب للإنسان.

---

* هذا هو رأي الكاتب وما يريده الغرب لنا أن نعتقد به ، وعلينا ألا ننسى أنه يكتب عن مرحلة كان العثمانيون لم يمض على انسحابهم من سورية إلا بضع سنوات ، ولم يمض على الانتداب الفرنسي عليها إلا بضع السنوات نفسها .

وهكذا فالسوريون منقسمون إلى مجموعات صغيرة متعادية، وكانوا بمذاهبهم المختلفة: المسيحيون، والمسلمون، والدروز. العرب، والترك، والأرمن، واليونانيون*، والشراكسة، كانوا جميعهم، يُقدِّمون برهاناً للذاتيّة الأكثر ضيقاً، والأكثر طفوليّة، وكان كلٌّ منهم يتطلّع إلى إقصاء المجموعة المجاورة، إنْ لم نقُل إلى تدميرها**.

كان كل منهم يطالب بفرض نظام خاص يوفّر الامتيازات الخاصّة به ربما منذ فجر التاريخ، لا يسوّغها شيء. وليس فيهم من يريد الخضوع لقاعدة عامة، أو لقانون جامع، ولكي يغدو قانون من هذا النوع فاعلاً ومفيداً، يجب أن يكون ناشراً للمساواة بين الجميع.

هل يمكن إرغام الساخط على ابتلاع سخطه؟ وهو الذي يجأر بالشكوى من الاضطهاد. رافعاً صراخه الحاد إلى حدود ملء أسماع العَالَم بأسره.

ومهما بدا ذلك متناقضاً، فالكل مرتاح إلى هذا الدور، دور المستاء الدائم، والمحتج الأزلي. إنه لا يبتغي شيئاً مادام الشك المتواصل، وعدم التوازن السياسي الذي يتفنن في تغذيته مستعراً ومهتاجاً أشد الاهتياج. هذا النظام الذي بات قائماً، ولم يعد له أي فائدة بنظره، لأنه يصرّ، ومن دون تأخير، على العودة إلى الحالة القديمة التي، ومنذ الغد سوف يبدأ بالاحتجاج عليها!...

ألم تكن سورية البلد الذي كان الآلهة أنفسهم فيه موضع أعنف

---

* وهذا خطأ من المؤلف فهو يسمي طائفة الروم الأورثوذكس باليونان وهم عرب أقحاح لا علاقة لهم باليونان .

** كان هذا رأي الغرب فينا غداة سقوط الإمبراطورية العثمانية ، وكان هذا مبرره للانتداب والاستعمار .

نقاش؟ وأكثر من ذلك، ألم تكن مثار مطمع على مرّ القرون. ألم يكن أعداؤنا، وربما حلفاؤنا، على الأخص، ينظرون إلينا بكثير من الحسد ونحن نستقر فيها؟

أما كانوا شهوداً على الصعوبات التي نواجهها أمام كل وطأة قدم، وهل قاموا بأي عمل لمساعدتنا في إخضاعها. وعلى العكس من ذلك، فلقد شجعوا المتذمرين الطبيعيين، وجميع أولئك الذين كانت وصايتنا عبئاً عليهم، وكانوا يحلمون بأن يؤدوا دوراً سياسياً كان وجودنا يحرمهم منه. إنهم- وعملاً بصيغة معروفة – لم يدّخروا وسعاً من أجل دفع فرنسة «إلى النفور من سورية ودفع سورية إلى الاستياء من فرنسة.»

هل نجحوا؟ ليس بشكل كامل بعد. وهذا ما نستطيع تأكيده من جهتنا، فلقد راكمنا الأخطاء كما لو كنا نستمتع بها. في حين كان علينا، وبعد إعداد مخطط سياسي إداري، اقتصادي واجتماعي، أن نعهد بتنفيذه إلى رجال حازمين ومطّلعين على ما يجري في الشرق، وأن ندعمهم، وأن يستمروا مدة طويلة في مراكزهم حيث يصمّون آذانهم عن سماع أصوات شعب معروف بنزعته إلى الاضطراب والتآمر لكننا، عوضاً عن ذلك، أتينا إلى بيروت من دون برنامج.

كان الرجال المكلفون بتمثيلنا يفتقرون إلى معرفة البلد. كانوا يرتجلون السياسة والإدارة يوماً بيوم، مستندين إلى فئة تارة، وإلى غيرها تارة أخرى، فتمكنوا من إغضاب الجميع. لكن مع ذلك كان هؤلاء الرجال سينتهون إلى أنْ يكونوا سادة أنفسهم، وفي اللحظة التي كانوا سيتحررون فيها من الوصايات التي قبلوا – هم الأوصياء – بها، لربما كان من الممكن أن يقوموا آنئذٍ بعمل جيد، إلا أنهم كانوا يُبَدَّلون وفق

رغبات، ومفاجآت، وتقلبات السياسة الداخلية الفرنسية فكان عليهم أن يبدؤوا من جديد في كل مرة!

آه! هل كان علينا أن نتشبه ببريطانية، التي تمارس، هي أيضاً، وصاية على أقاليم منفصلة عن الإمبراطورية العثمانية، مثل سورية ؟

لم يكن الموظفون الذين وضعناهم في سورية ، رجالاً عباقرة بالتأكيد. لكن كان لديهم المقدرة الأكيدة على البقاء طويلاً في أماكنهم، حيث، كانوا جميعاً يخدمون باسترخاء، وأياً كان انتماؤهم، كانوا، وبعقلية واحدة، يخدمون بغباء وجهل السياسة الاستعمارية للعزيزة الهرمة بريطانية.

لقد استخدمنا، حتى تاريخه، خمسة مفوضين سامين في بيروت، وجاء سادس ليستقر فيها. وكان ضرورياً وأكثر إنسانيّة ألا يحترم كل واحد منهم ما قام به سلفه، بل على العكس، أن يعمل على هدمه، ويُمارسَ سياسة شخصية لم يمضِ الوقت بعد لجني ثمارها.

وهكذا شتتنا نفوذنا، وهدمنا سلطة ممثيلنا، وقدَّمنا للشعوب الأكثر توتراً، والأكثر صعوبة للإخضاع ، والأكثر ميلاً للغليان أسباباً للاحتجاج، والاضطراب، وللثورة على السلطة التي كانت تقرُّ بأنها كانت مترددة، ولم يكن من المجدي احترام قراراتها فلم يكن لها أية صفة قطعية، وكان يكفي إقامة حملة حاذقة في باريس أو جنيف لإلغائها، بل الوصول إلى استدعاء من قام بها، إذا لزم الأمر.

إن الذي ينزل في بيروت، يجتاز سورية من دمشق إلى حلب، ومن الإسكندرون إلى بصرى اسكي ـ شام، مجتهداً لفهم المسألة السورية وسيبقى حائراً أمام تعقدها.

ومع مرور الأيام، والأسابيع، والشهور، تبدو الشلّة أو كبّة الخيوط التي يُسعى إلى حلها تبدو متعذرة على الحل.

هذا القادم إلى سورية هل كانت لديه النيّة لكتابة كتاب يمكنه أنْ يُعطيَ نظرة شاملة عن هذا البلد، الذي تؤدي فرنسة فيه دوراً على قدر كبير من الأهمية؟

هذا القادم إن امتلك شيئاً من حسن النية، ولم تكن لديه الثقة اللامتناهية بالنفس، ولم يكن ساذجاً، وهما على كل حال متشابهان، ينبغي عليه أن يعزف عن ذلك... ويكتفي بنشر بعض الملاحظات، وبعض الانطباعات، قائلاً وبصراحة لذلك الذي سيقرؤها: إنه، على الأخص، في البلد حيث ظَهَرَ عدد كبير من الديانات، وحدث عدد هائل من الانشقاقات. وأن الحقيقة ليست مغطاة ولا هاربة إلا حين نعتدّ برؤيتها، عارية ويمكن معانقتها أخيراً.

سفينة « أبو الهول * » الصاخبة
أو اجتياز البحر الحليم

مرة أخرى، أسافر إلى الشرق المتوسطي الذي أبحرت باتجاهه أربع مرات منذ الحرب. كيف لا أذهل من فكرة اجتياز البحر اللطيف وقد غادرت باريس البارحة مساءً، في شهر تشرين الثاني، وأن أعود لرؤية شواطئ كورسيكة وسردينية، وخليج مسينة، والإسكندرية، والقاهرة، والرسو، أخيراً، في بيروت، باب سورية، هذه الأرض الأسطورية، مهد وضريح عدد كبير من الأنبياء، ومن الأولياء القديسين ، والآلهة؟

كانت متعاً منتظرة، متعاً متوقعة منذ عشرة أيام قضيناها على ظهر المركب الأكثر فخامة لشركة المساجيري البحرية! أسحار المشارق والمغارب! انتظارات طويلة، بعد الظهر، على الشاطئ الخلفي للحانة! وفي المساء، الرقص تحت النجوم! كانت حياة رائعة، حياة ليس لها شبيه، مصنوعة من الخمول، ومن الراحة التي تتمتع بها دون تأنيب ضمير، وتقدم في كل ساعة، سحراً جديداً.

كانت هذه السفرة تقدم مشهداً استثنائياً مغرياً آخر، وكأنه مشهد للتسلية: «سفينة أبو الهول» التي تحمل السيد هنري دو جوفنيل،

---

* أبو الهول Le Sphinx : هو اسم السفينة التي أبحر فيها المؤلف .

المفوض السامي للجمهورية في الشرق، إلى وظيفته. وكل مسافر على ظهر الباخرة يعرف اسمه، والمنصب الذي قُلدَه، وأسطورته. ومن المعلوم أنه يتمتع، في فرنسة، بمقام الرجال الذين أحسنوا القيام - ولو بفتور ظاهر - بجميع المهام التي كلفوا بها. ومن المعلوم، أنه، وبفضل النجاح الذين أحرزه في جنيف، قد حصل على هذه الشهرة الدولية التي كان يُعَوِّلُ عليها ولا تزال تنقصه، وكان قد حاز عليها بالسهولة نفسها التي حاز فيها على كل رغباته دون أنْ يُظهِرَ ذلك.

من المعروف.. من المعروف.. وما هو غير المعروف عنه؟ استغربوا أنتم، إذْ إنَّ مجرد وجوده يثير قليلاً من الحرارة، ومن الرعشة، ومن الحماسة، وقدراً من الفضول لدى المسافرين، وخصوصاً المسافرات العازمات على أن يرينه بأعين " شيمن "*، وأن يعرضن، وعلى شرفه، جميع فساتينهن، وجميع مجوهراتهن، حسب ما هو مفروض، وأن يعرضن أكثر ما يمكن من أجسادهن، ولاسيما حين يكون لديهن امتياز السفر على الباخرة نفسها التي تقل رجلاً ذا سمعة بحجم سمعته.

هاهو ذا يجوب الجسر ويداه خلف ظهره ، يسير متمايلاً قليلاً تحت الأنظار المتضاربة.

- أيتها الآلهة المنصفة! كم يبدو شرقياً، يتمتم البعض لدى مروره، ألهذا اختاروه؟

- إنه يشبه عدلي باشا يكن، رئيس الوزارة السابق لدينا. تؤكد شابة مصرية.

---

* Chimene: بطلة مسرحية كورنيّ Le Cid ، شيمن لم تنقطع عن حب رودريك قاتل أبيها رغم مطالبتها برأسه ، إرضاءً لقانون الشرف السائد حينذاك .

وبالطبع، يقصُّ المطَّلعون قصصاً على من هم أقل منهم اطلاعاً، والسيد هنري دو جوفنيل يعرف أية قصص تلك. وأقسم، وأنتم تُقسِمون أيضاً إنَّ هناك بعض المسافرين الذين يُبْدُون نحو ممثل فرنسة في سورية اهتماماً أكثر حماسة من ذلك الذي يبديه ضباطنا، وموظفونا، والسيّاح الفرنسيون، والإنكليز، والأميركان، المتجهون إلى مصر. ثم هناك أبناء الدلتا المصريون العائدون إلى وطنهم.

إنهم أشخاص بلون العنبر القديم، بلون الزيتون أو النحاس، وبشعور زرقاء وعيون بلون القهوة المطحونة، يجلسون هنا وهناك في مقاعد على ظهر الباخرة، يراقبون المتنزهين بإصرار، ويحاولون اكتشاف طباع المندوب السامي، وأفكاره، ونياته بمجرد تفحص وجهه.

من هم؟

و.....ما لبثت أن عرفت ذلك من فم أحدهم، الذي انفصل عن مجموعته واقترب مني ليصرّح لي بأنه عرفني سابقاً في القسطنطينية، فإذا كان ما يقول حقيقة إلا أنني لم أتذكر ذلك! ولا يرجع الأمر إلى نبرة الثقة التي حدّثني بها، بل لأنه يدعوني، وبشكل صحيح، باسمي، ويكلمني عن كتبي، مما أرضى غروري. ومع ذلك، وعندما سألته أن يذكرني بالمناسبة التي التقينا فيها، أجابني بسذاجة: إنه كان جاري في إحدى طبقات فندق بيرا ـ بالاس، عندما كان هناك منذ ثلاث سنوات، ولمدة أسبوع. لقد سألني آنذاك عن هويتي. كانت علاقتنا تمتد إلى هذا الحد، هذه العلاقة التي كان يذكرها لتوّه وهو يحييني بهذا القدر من المودّة الغامرة.

أيها الشرقيون الرائعون! هاأنذا أجدكم جميعاً في شخص هذا الفتى الجسور ذي الجفنين البنيين الغامقين والشفتين الباذنجانيتين. وتستطيع

أن تحتفظ حتى الموت، بذكرى الوجه الذي رأيته للحظة، ولن تنسى أبداً اسماً لفظ أمامك، أو قرأته مرة على خريطة، أو على حقيبة، أو على مغلف، أو طلبت تسريبه إليك بواسطة بواب الفندق.

أقول:

- إنك مسيحي، أليس كذلك؟

- نعم، لكن كيف حزرت ذلك؟

- مظهرك الذي لا يخطئ أبداً!...

من أية جهة كان لي أن أُصَرِّحَ له بها:

- نحن الفرنسيين، على قلة تآلفنا مع سكان الشرق الأوسط إلا أننا نعرف - ومن النظرة الأولى- النصراني، المولود على الأراضي المشرقية فهو شديد الاختلاف عن نصراني من بلادنا لدرجة أنه من الصعب الظن أن فكراً واحداً يشملهما معاً. إننا نعرفه من تعبيره الوقح تارة، والمتواضع تارة، من نظرته وابتسامته، من مكره، ومن قلة حيائه، ومن تطفله الهادئ، من مئة شيء يهيننا ويهيّجنا.

مرة أخرى، من هو صديقي؟ ومن هم رفاقه؟

إنهم سوريون، أو لبنانيون — إن شئتم - مفوضون، إلى حد ما، من قبل لجان، ومن قبل فئات سياسية أو دينية مختلفة، ويمارسون، إلى جانب ذلك، المهن الأكثر تنوعاً: محامون، مصرفيون، وكلاء، سماسرة، وسطاء من الأصناف كافة، كلهم غادروا بيروت حينما علموا باسم خَلَف ساراي وتاريخ إبحاره. وجاؤوا إلى مرسيلية حيث مكثوا مدّة ثمانٍ وأربعين ساعة فقط. وهاهم أولاء على ظهر الباخرة « أبو الهول »، يبحرون من جديد نحو فينيقية القديمة.

لماذا تركوا لعبتهم في الشطرنج أو البكارا، وتركوا أعمالهم، وكل «تطبيقاتهم المثمرة»؟ سوف تفهمون.

فتسمية موظف مهم في الشرق لا تشكل حدثاً سياسياً أو إدارياً فقط، بل تمثل فائدة تجارية ومالية أيضاً للذي يعرف كيف يستغلها في حينه.

فكلّما تسلّم والٍ، أو محافظ، أو مفوض سامٍ مهامَّه، اندفع كل من يبيع، ويشتري، ليعرض، ويُوكِّل، ويرافع أو يتدخل، كما اندفع كل مَنْ لديه مركز مراجعات، أو مكتب تجاري على نحوٍ من التوتُّر لِيُنظِّم خطّة للتحرك.

في سورية على المرء أن يكون ذا حظوة، وإن لم يكن كذلك، فعليه أن يعطي الانطباع، للأصدقاء، وللعملاء الذين يتعامل معهم، وببساطة ودون شعور بالضرر من ذلك، بأنه من أصحاب النفوذ.

لذا، ومنذ أن يشغل السيد الجديد مكانه، فإنهم سرعان ما يتسابقون إلى حِصَاره، في البدء على شخصه، ثم يستولون على محيطه، وهم يعرفون كيف ينوعوِّن مساعيهم، ويحتملون الانتظارالمديد بصبر في الممرات، ويعرفون كيف يتقبلون بطواعية أشد الضروب من سوء الاستقبال، وكما هو الحال في بلاد العالم كافة، وبالأخص في الشرق، فإن مقاومة المُلتَمس تخبو أمام مقاومة المُلتمِس، وحين يكون هذا الأخير جاداً، وعازماً، وعلى درجة من الصبر والتصميم ، فإنه يُتاح له السجود أمام الشمس المشرقة والحصول منها على الأشعة النافعة.

هل تخلت السماء إلى هذا الحد عن المرء حتى لا يتمكن من أن يُستقبل ولو مرة واحدة؟

في كل يوم، وخلال أسبوع، أو أسبوعين، في ساعة المقابلات، وفي كل الوقت اللازم سننتظر بامتثال، في الغرفة المجاورة، لمانح الوظائف، مانح النعم، والهبات. وبواسطة الأشخاص الذين يظنون ببساطة أنكم تنتظرون دوركم، بواسطتهم هم أنفسهم، ستعلم المدينة بكاملها بأن لديكم مقابلة يومية مع ممثل السلطة، الذي ليس لديه ما يرفضه لكم، وبأنكم وبالنتيجة، شخصيّة تستحق المداراة!

وانطلاقاً من هذا يمكنكم تضخيم استشارتكم التي سيستشيرونكم فيها، وتعظيم نصائحكم، ومداخلاتكم، أياً كان نصيبها من التخيل، و...كذلك جميع الخدمات الصغيرة التي تلتمس منكم!...

إنما الخطة الكبرى تكمن في محاصرة السيد الجديد من قبل الزملاء، المتنافسين، المتزاحمين. لذلك، وعندما يكون الأمر ممكناً، يجب الانتظار ليكون الرجل المعني قد تسلم مهمته، بل يجب السعي إلى ملاقاته. وعندما يكون عليه أن يسافر مدة طويلة، ولاسيما بحراً، لتسلم مهمته، حينئذ تكون هناك فعلاً عمليّة رابحة على المرء أن يغتنمها.

إن الحياة على الباخرة مناسبة للقاءات، للتعارف. وهي تسمح بشيء من التآلف. فعلى ظهر السفينة يستطيع الإنسان أن يتدبر أمره دائماً!

كان صديقي مع أصدقائه بالتأكيد على ظهر سفينة «أبو الهول» يتدبرون أمورهم. وقد علمت بأن بعضهم اختصاصيون، ممن سبق لهم أن سافروا على مراكب كانت قد أوصلت غورو، وويغان، وساراي إلى سورية. وكان كل منهم واثقاً بصناعته، وبحذاقته، وليس على استعداد للتراجع أمام أيّة وسيلة، وهو يُفَكِّرُ بمضاعفة الانحناءات والقفزات

المتكررة والتقرب من أحد معاوني ممثلي السلطة المنتَدبة. ولكن كثيرين منهم، كانوا لحسن الحظ، يقومون بسفرتهم الأولى إلى الشرق. وقد اكتشفوا لتوّهم، بأنهم، إذاً، دون حماية ضد بعض الوسائل التقليدية التي تمرُّ على الأوروبي العادي غير المتمرس.

هذا المساء، وعلى أبعد تحديد، غداً صباحاً، سيكون هؤلاء السادة الذين هم بلون العنبر القديم، أو الزيتون أو الفولاذ، «أصدقاء» للضبّاط الملازمين، ويصرحون لهم أنهم فرنسيون أكثر منهم، ويطرحون عليهم أسئلة خادعة، ويحدثونهم عن سورية «الحقيقة الحقة»، ثم يدعونهم لتناول العشاء، ثم للنوم الخ... ثم يضعون تحت تصرفهم هناك في بيروت، بيوتهم التي يملكونها في الجبل اللبناني، لغاية الصيف المقبل.

- كل ما يخصني هو لك، يا عزيزي !...

ويُحققون أملهم بتقديمهم إلى السيد هنري دو جوفنيل. بعد أن صرّحوا له، وحسب التقاليد : «بأنه لو فَتَحَ قلبهم لوجد فيه اسم فرنسة العزيزة مكتوباً بأحرف من ذهب خالص»، وبعد أن حذروه، بقَدْرٍ من التلقائيّة والإقناع من مواطنيه، هؤلاء الذين كانوا، في ظل العهود السابقة يتمتعون بنفوذ، من المُؤكَّد أنَّه شائن وغير أخلاقي، هؤلاء الأقارب أو الذين صاروا أقارب سوف يكشفون، أخيراً، عن لعبتهم.

فهذا واحد يتقدم بعريضة باسمه أو باسم أحد زبائنه الكبار، وآخر يقترح تنسيقاً تجاريّاً أو صناعيّاً أو مصرفيّاً. وهذا ثالث يلتمس احتكاراً ما، وذاك الأخير يعرض الذهاب للتفاوض مع المتمردين من أجل فرنسة، فرنسة التي يحبها أكثر من أمه.

هكذا نعم !

السيد هنري دو جوفنيل، هو أيضاً، يبحر للمرة الأولى، نحو بوابات الشرق. وهو لا يزال يجهل الوسيلة الملائمة لإبعاد رعاعه المُتطلبين، وإبقائهم على مسافة منه.

وبتهذيب عالٍ وسلوك رصين، كان يصغي، مُظهِراً الاهتمام، إلى الأحاديث التي تُجرَى معه.

ومثل أسلافه المُلتَمسين من قبل الرجال أنفسهم، وبالشروط ذاتها يطمئنهم بطيبة قلب، ويعدهم أن يتفحص شخصياً الأمور المختلفة التي قدمت إليه.

واعتباراً من هذه اللحظة، يستطيع هؤلاء السادة البيروتيون الادّعاء بانتمائهم إلى خاصته، وبكونهم المؤتمنين على أفكاره، والمحافظين على أسراره، والحديث باسمه، ثم يُعلنون باستهانة وهم يغادرون المركب : « صديقي هنري دو جوفنيل »، أو بطريقة ألطف : «صديقي هنري »، وفور إقامته في السراي الكبير، وتحت إلحاحهم المُرهِق، ينتهي إلى تلبية بعض المطالب طلباً للراحة.

هكذا تصرف غورو البسيط ، وويغان التقي ، وساراي المخيف.

لماذا لم يقلدهم جوفنيل الرائع ؟ لماذا لم يمنح بعض الأحداث السعيدة لأبناء لبنان الذين تكلفواالنفقات ومشقات السفر عبر البحر ليكونوا أوائل الساجدين أمامه، والذين، ظلوا يراقبونه ويهمسون في آذان بعضهم بذلاقة، ويتبادلون غمزات الأعين والحركات الخفية للتشجيع على الهجوم ؟...

إذن، المسابقات الرياضية ستحدث على ظهر المركب !

* * *

و....لقد حدثت المسابقات الرياضية على ظهر المركب !

لكن ليس ذاك ما كنت أنتظره.

فما إن غادر مركب « أبو الهول » مرسيلية، حتى كانت الريح قد استولت عليه لتلعب به كريشة، أو كقشة. كانت العاصفة، ولمدة ستة أيام، وست ليال، تقلّبه، وتؤرجحه، وتهزّه بقوة، وتجعله يميل حتى تجعل الربّان يتساءل هل كان مركبه يستطيع أن يستوي ثانية؟

في ركن المشروبات، في الصالونات في غرفة الطعام، كان الأثاث المُخَلَّع أو المُفكَّك، يقفز مثل المدفع الذي يصفه الأب هوغو في رواية الـ« ٩٣ »*: كانت المطابخ غارقة، وكانت الكارثة.

أحلام صباحية على الجسر، وقفات طويلة على الشاطئ الخلفي بعد الظهر، رقصات تحت النجوم، عروض أزياء، مجوهرات، شهوات؛ ما أقل مايفكر بكل هذا الترف، أولئك الموظفون والأثرياء، وأبناء الدلتا، والسيّاح، والعراة الجميلون !

بأية آلام، وبأية أهوال بُدلت اللذات التي كنتم تنتظرونها من هذا العبور على ظهر أروع مراكب العالم، يا إلهي !

كنتم تتأوهون، وتزمجرون، مستلقين على أسرّة حجراتكم، تنادون الموت ليسعفكم، ونقولها باحترام، كنتم تتقيأون.

أما بالنسبة إليكم، أيها البيروتيون الحاذقون في التدبير، فقد كنتم مُجلَّلين بالحزن، ومع كل تأرجح وآخر للباخرة كنتم تُرجِعون، وربما لأول مرّة في حياتكم، مشاعر الأسف والمرارة، بسبب إنفاق أموالكم دون منفعة.

---

* يقصد رواية فيكتور هوجو الشهيرة .

كان البحر قد خرب آمالكم بشدة. ولم يكفّ عن تعذيبكم إلاّ في ميناء الإسكندرية، حيث، وللاستخفاف بكم، أصبح فجأة هادئاً وعذباً مثل بحيرة جميلة.

لكن ذلك جاء متأخراً جداً. لقد فقدتم حظكم، ففي الأيام الأولى التي كانت ستنقضي قبل وصول السيد هنري دو جوفنيل إلى بيروت، كان ينبغي على مركب «أبو الهول» أنْ يرسو ثماني وأربعين ساعة في الإسكندرية، ليسمح له أن يذهب إلى القاهرة. وهنا يمكن أنْ يقول، دون تعمد إهانة، كان لديه كلاب أخرى غيركم لتمشيطها. ويا لها من كلاب!...

درس في السياسة المشرقية

صعد هذا المساء السيد غيّار وزير فرنسة في القاهرة على ظهر مركب « أبي الهول » للسلام على السيد هنري دو جوفنيل. وكان يتبعه حسبما تقضي المراسم، قوّاص يرتدي سترة زرقاء جميلة من القماش الناعم المطرز بالفضة، وسروالاً فضفاضاً، ويعتمر طربوشاً بلون فاقع. مع قضيب طويل بشكل سوط، وسيف معقوف، وخناجر مزخرفة، ومسدسات ألبانية تستكمل تجهيزات هذا الحرس الشخصي.

هذا الوزير الذي كان قد دَخَل الحَيَاة دخولاً مُبهِراً، والذي كان يتشبّه في سلوكه، ربما، بأولئك الأغنياء الساكنين منطقة نوبيي، كان، رغم ذلك، شخصاً ذكيّاً. كان رجلاً ذكيّاً ذكاء رجل طيّب بعينين كبيرتين وبريئتين، وساقين قصيرتين، وبطنٍ يُذكرنا ببطن تاجر مُفَرَّق في الستّين من عمره (تاجر خردوات أو بائع أعشاب طبيّة) ازدهرت تجارته إلى درجة يُفَكِّر فيها بالانسحاب من العمل وإضافة إلى ذلك كان نطقه سيِّئاً.

لقد أكدوا لي خلال سفرة سابقة إلى القاهرة، أنه إذا كان السيد غيار ينعق أو يتأتئ فهذه التأتأة ليست عفوية. لأنه بها يترك لنفسه الوقت الكافي ليزن كلامه، مطولاً، ويزن جميع أقواله. فلا يُفضي إلاَّ بما يُريد.

ويبدو أن دبلوماسياً جديراً بهذا الاسم، ينبغي أن تكون في جعبته عدة حيل صغيرة من هذا النوع. ويمكن أنْ نقول عَرَضَاً إنَّ هذه الجعبة يُخفيها، بمنتهى الحذاقة، ممثلو الجمهوريّة على أرض الفراعنة القديمة.

وقد زعموا أيضاً أنَّ وزيرنا الممتاز في المستعمرة الفرنسية بمصر!!! ينتمي إلى هذه الفئة من موظفي وزارة الخارجية الذين دخلوا هذا السلك منادين : " لا مشاكل ! لا مشاكل ! "

" وهو صبور وساذج من أهل الخير، محب للراحة والسلام والهناء كثيراً "، هذا المدافع الرسمي عن حقوقنا وامتيازاتنا وفوائدنا وضع لنفسه برنامجاً: " يتلخّص بعدم إثارة مشكلات البتة، وبممارسة سياسة التنازلات بحزم وأيّا كانت الظروف، بغية استحقاق نيل ورضى الملك فؤاد والمفوضية البريطانية، أخيراً.

يتحدث السيد غيّار في هذه الساعة وفي زاوية من البهو، إلى السيد هنري دو جوفنيل.

كان محمرّ الوجه قليلاً، ومنفعلاً قليلاً، دون شك، وكان مضطراً أن يرفع رأسه لينظر إلى مخاطبه، الذي يحني قامته الشاهقة بلباقة، ليجنّب زائره الدبلوماسي ذا الحجم المُصَغَّر رياضة مرهقة، ويدلي أمامه بمعلومات مهمة جداً، على أغلب الظن.

ما الذي يدور الحديث عنه؟ هذا، بالطبع، ما لا أستطيع قوله لكم. لكن عندما غادر الوزير الباخرة، بخطوات صغيرة يتبعه قوّاصه، علمت أنَّ لقاء سيتم بعد غد صباحاً، بين السيد هنري دو جوفنيل في القاهرة والأعضاء الإداريين للجنةالسورية - الفلسطينية، وأنَّ الصلح الفوري قد ينجم عن هذا اللقاء.

أكان من دبرَّ هذا اللقاء هو السيد غيّار ؟ وهل نحن مدينون لحسن مساعيه في انتهاء الكابوس السوري ؟ أتمنى لو أستطيع اعتقاد ذلك. وأنا مستعد، لتوي، أن أشهد بأن وزيرنا في مصر قد نال تقدير فرنسة هذه المرة.

لكن ما هذه اللجنة السورية - الفلسطينية، التي سيجتمع بها المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في المشرق إذن، ألديها من السلطة ما يساوي سلطته للتفاوض تقريباً ؟

آه ! ما أصعب تفسير ذلك باختصار ووضوح كاف!

مع ذلك، سأحاول.

خلال القتال الذي خاضه الحلفاء ضد الامبراطورية العثمانية، وشارك، فيه العرب السوريون والفلسطينيون، مشاركة هشّة، كان هؤلاء يحلمون منذ عصور بالتخلص من النِّير التركي، وقد ألمح إليّ بعضهم في أثناء ذلك بأن في إمكانهم، تأسيس مملكة عربية شاسعة بعد توقيع معاهدة الصلح. مملكة تمتد من قناة السويس إلى طوروس، ومن المتوسط إلى بلاد فارس، ويكون رئيس هذه الدولة الشريف الحسين، وهومن سلالة النبي. وكان هذا الشريف يسيطر على مكة والمدينة ويحمل لقب ملك الحجاز، بينما يحكم ثلاثة من أبنائه باسمه في بغداد، ودمشق، والقدس.

إلى أي حد وافقت فرنسة على أنصاف التعهدات هذه؟ وإلى أي حد علمت بها ؟

هل تمَّت من قِبَل انكلترة بمفردها، أو على الأقل، من قِبَل أحد عملائها غير الرسميين، هؤلاء المغامرين الذين فضَّلت استخدامهم أكثر

من دبلوماسييها، لكي، تستطيع في الوقت المناسب، أنْ تتنصّل من مسؤوليّة تجاهل التنفيذ.

ثمّة سر عميق يكتنف هذه النقطة. إننا لا نعلم - ولن نعلم - دون شك، أبداً، إلى أي حدٍّ أمَّلتْ بلدنا وشجّعتْ طموحات العرب الوطنية، ولا نعلم أية وعود محددة تقريباً، كانت قد أُعطيت لهم باسمها.

وكانت هزيمة الترك وتعليق القتال. ثم انقضت فترة طويلة بعد ذلك، لم يعرف، خلالها، أكان الصلح قد حلَّ، أم أن الحرب كانت ماتزال تفتك بالمنطقة من دجلة إلى المتوسط إلى شبه الجزيرة العربية. لقد بدأت انكلترة تفهم، وخصوصاً في المشرق، أن العمل ليس شقيق الحلم.

وتبيَّن لها، أن المملكة العربية، كانت أملاً صعب التحقيق، هذه المملكة الشهيرة التي كان من الممكن أنْ يُولَّى عليها الملك الحسين، وكانت كالدمية المتحركة تعبث بخيوطها متى تشاء.

وهكذا، وبما أن الأمل بالحصول على كامل الكعكة التي كانت تطمح فيها لم يعد ممكناً، راحت تتفنن في تسميم القطع التي كانت ستفلت منها، لا محالة، والتي كانت، حليفتها وشريكتها فرنسة، تستعد لمدّ اليد إليها.

لقد افتعلت سياسة ملتبسة ومضطربة إلى حد ما، بل وسياسة خائنة بحقنا.

- لماذا لم تكتب؟

لقد خَلَقَتْ لنا أخطر المشاكل حتّى اليوم الذي حُددت فيه مخصصاتها ومخصصاتنا في الشرق الأدنى. كانت تتسلم الانتداب على فلسطين والعراق، ونحن نتسلمه على سورية. وهكذا، أخذت هذه المنطقة

كلها تهتز وتسقط* بعد أنْ كانت قد قامت على حلمٍ عظيمٍ غير مُشَجَّعٍ عليه من قِبَل الحلفاء فقط بل مُثارٌ من قِبَلهم.

كان العرب قد غُرِّرَ بهم، لقد وُعِدَوا بالاستقلال ثم أُنكر عليهم هذا الاستقلال. وأدهى من ذلك، ما حدث في فلسطين، وهي إحدى المناطق الأكثر غنى بالتقاليد الإسلامية، كانوا قد جلبوا إليها عشرات الآلاف من اليهود الكثيري التناسل، ليسكنوا فيها بشكل مُنَظَّم، وكانوا من اليهود المهرة الذين ما لبثوا أن اكتسحوا المواطن الأصلي وطردوه.

في سورية، في فلسطين، في العراق، والحجاز، ومن طوروس إلى قناة السويس ومن الشاطئ إلى الصحراء، كان الشيوخ، الذين أملوا أن يمتد بهم العيش حتى يشهدوا تحقق ما حَلَمَوا به في صباهم، قد أصابهم القنوط وكان مُتَصَوفو الفكرة العربية ودعاتها، قد أطلقوا صرخة يأس وغضب. هؤلاء الرجال، ذوو النفوس القاسية والبسيطة، والسوّية، والذين كانوا يشكلون العنصر الأكثر سلامة، والأكثر نزاهة، والأكثر شجاعة في سورية وفلسطين قد أبطنوا لنا عداوة مُرَّة. وهم الذين كانوا مهيئين لتحمل عبء وتأثير الدعاية ضد انكلترة وضد فرنسة.

إن جميع ممتهني التحريض الذين كانوا يتكاثرون في الشرق الأوسط، وجميع الطموحين، الذين كانوا يأملون أداء دور في الدولة، والحصول على مراكز، وعلى مكافآت، وعلى ألقاب، وعلى منافع مادية، وأملاك غنية، ووظائف شرفية، إلى حد ما، في بلاط مكة أو في فروعها في دمشق، وبغداد، والقدس كل هؤلاء جاؤوا ليبشروا بالثورة ضد

---

* هكذا تتبدى المؤامرة على أحلام العرب في دولة مستقلة عن العثمانيين ، هكذا تتبدى من وجهة نظر الغرب ، والفرنسيين تحديداً .

الأمتين الغربيتين الكبيرتين اللتين، بعد أن استغلتا الشعب العربي عقبَ سقوط الإمبراطورية العثمانية، تقاسمتا، ودون حياء، أراضي شاسعة كانتا قد تعهدتا بمنحها نظام الحكم الذاتي.

إن هؤلاء المبشرين الذين هم كتلة من الوطنيين الاعتياديين، وفيها بعض المغامرين المستقلين، أنشؤوا منظمة احتجاج حيث لم يجدوا، البتة، أية صعوبة في إدخال الرجال، الذين تحدثتُ عنهم أعلاه، إليها. وكان بدء اللجنة السورية - الفلسطينية التي نمت شيئاً فشيئاً، وضمَّت، إلى حضنها، أقواماً من جميع الأصول، من جميع المذاهب (مافتئ العربي الأصيل أن غرق في وسطها)، ومنحت نفسها برنامج طرد انكلترة وفرنسة من البلدان التي تمارسان وصايتهما عليها.

كان هذا البرنامج يتطلب رئيساً، ولقد بحثَوا عن. هذا الرئيس الذي يُفتَرَض أنَّه على مكانة عالية من الترف وأبهة العيش والثراء (كنا سنحتاج أموالاً كثيرة، كانوا يتمتمون) ومن المُستحسن أنْ يكون ضعيف العقل لدرجة نستطيع معها مناورته، وأنْ يكون هشّاً (بانتظار الأفضل) ليتصوَّر أنه مُخصص لحمل تاج ملكي: هو تاج سورية، المُنتَظَر منحه، للشريف الكبير الحسين.

وقع خيار اللجنة بعد تردد، على ميشال لطف الله، من طائفة الروم الأرثوذكس، وهو من أصل سوري مقيم في القاهرة. ويستوفي تماماً الشروط الأربعة المطلوبة، كانت لديه إيرادات طائلة، وكان ذكاؤه ضعيفاً، وطموحه من دون حدود.

وللحق، كان ينقصه شيء من المكانة. مع أنه في الشرق، يجب ألا يكون المرء متطلباً كثيراً فيما يتعلق بأصل الثروات، ولا بالطريقة التي

حصلت فيها أسرة لطف الله على ثروتها، مع أنها تُضايق حتّى ضامري الحِسّ، ويزيد في ذلك أنَّ هذه الأسرة لم يكن قد مَرَّ وقتٌ طويلٌ على انعتاقها من البؤس.

مع ذلك، إليكم قصة هذه العائلة كما رواها لي سوريون طاعنون في السن. إنها قصة ألف ليلة وليلة، قصة ملونة، قصة طريفة ومفيدة جداً.

حوالي عام ١٨٦٠، وصل إلى بيروت ثلاثة شبان من الروم الأرثوذكس، سمعان، وحبيب، وطنوس لطف الله، قادمين من عكا وهم لا يملكون شيئاً، فوجدوا مأوى لهم في غرفة حقيرة، على سطح الكنيسة القفقاسية، السوريّة ـ الأرمينية.

بعد فترة زمنية وجيزة، «اقترف سمعان جرماً»، كما يقال عندنا في الجنوب، واضطر إلى الفرار إلى الخرطوم مشياً على الأقدام. واختفى طنوس بطريقة غامضة إلى حد ما، وأسرع حبيب إلى الالتحاق بأخيه البكر.

توفي سمعان بعد سنوات قليلة، تاركاً لحبيب ميراثاً قليلاً من المال. وحبيب هذا ذهب إلى القاهرة واستقر في الفجالة حيث افتتح مكتب إقراض لمدة زمنية محدودة. كانت المهنة مربحة، والجميع يعرف ذلك. وازدهرت أعمال حبيب. كان ذلك في الوقت الذي كان فيه الخديوي إسماعيل باشا يوزع مساحات شاسعة من الأراضي القابلة للزراعة، في منطقة الدلتا، وقرب المدن، لكل من كان يستطيع دفع مبلغ من المال، حتى ولو كان زهيداً. كانت القطع الموزعة قطعاً كبيرة، صحيح أنها غير مزروعة لكنها صالحة للبناء. وهكذا استطاع حبيب تملّك الأرض، وباستمراره في تطبيق طرق الإقراض بالفوائد (الربا) التي ازدهرت جيداً في الفجالة، أصبح، وبشكل تدريجي، (مصرفاً لمتوسطي الملكيّات) ثم

مصرفاً لأصحاب الملكيّات الكبيرة التي كان ينهبها، دون شفقة، حين لا تفي هذه الملكيات بالتزاماتها، ثم، وبوسائل خفيّة، كان يشتري أراضيها لتتزايد أملاكه.

وفي عام ١٨٨٧، عندما صدر القرض الإثيوبي المكفول من قبل انكلترة، كان قد غطاه بكامله تقريباً، ثم صنع الأمر نفسه مع القرض التركي عام ١٨٨٨، ومنح في إثره رتبة الباشاوية.

اعتباراً من عام ١٨٩٥، كان الرجل الأكثر غنى في مصر، أكثر غنى من أسر سوارز، وصعب، وقطاوي*، أصبح أغنى من جميع أولئك الذين، جعلهم طمي النيل وقطنه، من أصحاب الملايين خلال بضع سنوات. وعند موته كان يملك ثروة مقدرة بستة ملايين جنيه مصري[١]

هذا العصامي رغم أعماله المتعددة كان لديه الفراغ لأن يخصص بعض الساعات للغرام. في الوقت الذي لم يكن بعد سوى الصغير جداً، ومُقرَض الفجالة المتواضع جداً، كان قد تَعَرَّف إلى أرملة خادمة أو غسالة من بين خدم عائلة غنية، وأنجب منها ثلاثة أبناء لم يكترث لهم أبداً، فاضطرت الأم إلى تربيتهم بمفردها قدر المستطاع.

لكن الكهنة الأرثوذكسيين غضبوا لهذا الإثم، وأرغموا العاشق على الزواج من شريكة تصرفاته. في تلك الأثناء كان حبيب لطف الله قد أصبح شخصية بارزة، أما تلك التي كان قد أرغم أن يعطيها اسمه، فكانت من وسط شعبي جداً بالنسبة إليه، وكان حبيب سيصبح عمّا قريب ثرياً يحمل رتبة باشا أيضاً. هذه المرأة بقيت إلى اليوم الذي دعاها

---

* أسر يهودية كانت تسيطر على الحياة الاقتصادية والسياسية بشكل ما في مصر

١ يساوي الجنيه المصري شلنغ واحد أكثر من الليرة الإنكليزية .

الله إليه لا تتلقى إذن الجلوس إلى المائدة العائلية، حيث كان الزوج يتصدَّرُ المائدة محاطاً بأبنائه الثلاثة الشرعيين ميشال وجورج وحبيب هؤلاء الذين سيصبحون، بعد بضع سنوات، أمراء، أمراء فرضوا على الجميع أن يخاطبوهم بلقب صاحب سمو، وقد أصبح أبناء حبيب أمراء كذلك.

نعم ! ففي اليوم ذاته الذي كان فيه الشريف الحسين دون مال، لم يجد غضاضة في تسمية هؤلاء الأمراء الثلاثة المسيحيين، المستعدين لدفع الكثير للحصول على لقب لم يكن معترفاً به، في الواقع، إلا للحاشية، وللزبائن المسمَّين الأمراء الجدد، ولبوابي القصور حيث كانوا يقيمون، ولصانعي فرش سياراتهم !

إذاً، وقد تنبأتم بذلك، فإنَّ البكر من أمراء الربا هؤلاء، هو من نصّبته اللجنة السورية - الفلسطينية رئيساً عليها.

وهكذا، أصبح للجنة رئيس محب للتباهي مستعد لإنفاق المبالغ الطائلة على أمل إبدال تاج تاج ملكي بتاجه الأميري.

وبدءاً من هذا الحين، فقد العرب الوطنيون مصداقيتهم أمام أعين العالم.

لقد قبلوا أن يتلاعب بهم دساسون غرباء عن القضية، غرباء حتى عن البلد الذي سيصبحون الناطقين باسمه والذين سيحُولُون، بالخداع وببراعة مساعيهم، دون ما كان من الممكن أن يكون حقاً من حقوق المطالب السورية - الفلسطينية يتاح له أن يُسمَعَ في أوروبة.

في هذه اللجنة كان هناك : المسلمون، والمسيحيون، والدروز، وفي هذه اللجنة كان يتآخى: سياسيون، ومحامون، وأطباء، وصحافيون دمشقيون، وطلبة أَتَمَّ كثير منهم دراساته في أوروبة، بل في باريس نفسها، وكان هناك جنرالات قدماء من الجيش التركي ووزراء سابقون لدى فيصل، ورجال دعاية عربية وإسلامية. وكان يسود جميع هؤلاء

الرجال نوع من المهادنة، أو من الاتحاد المقدس. هؤلاء الرجال الذين يفرقهم العرق، والوضع، والعقيدة، والذين كانوا يتمزقون البارحة، وسيتمزقون غداً، حققوا اليوم هذه الجبهة الموحدة.

هذه اللجنة التي حازت الرئيس، ذي الأبهة والعظمة، ولكن هل تدخل في صراع مكشوف ضد القوتين العسكريتين الهائلتين الباقيتين في أوروبة ؟ أبداً. ولكن هذه اللجنة كانت تتصرف خفية، ووفق طريقة معروفة جيداً، وأظهرت فاعليتها منذ زمن طويل، فقد كانت تهاجم بادئ ذي بدء، القوة التي تبدو هي الأكثر ضعفاً.

كانت تهاجم، فرنسة الموهنة والمتلفة بسبب حرب رمت فيها، بآخر رجل من رجالها، وبآخر قرش من قروشها، بينما كان حلفاؤها يوفرون قواهم الحيّة وإمكانات عملهم.

ماذا كان موقف انكلترة تجاه هذه اللجنة ؟ هي التي فهمت، سريعاً، بأن الخطر الذي كانت تمثله هذه اللجنة، كان بالنسبة إليها، إن لم نقل خيالياً، فعلى الأقل بعيداً جداً من حيث الزمن، لذلك قررت أن تستغله.

ودون أن تعدل عن مشروع مدّ نفوذها على كامل المناطق المنفصلة عن الإمبراطورية العثمانية، اعتبرت بريطانيا أن اللجنة يمكنها أن تقدم إليها خدمات ذات قيمة، ما دامت تفكر بشن الحرب علينا، وإثارة الشعوب ضدنا، لتجعلنا نشمئز ونسأم من سورية، وتكرهنا على الرحيل بالقوة، أو أن تخلق فيها نوعاً من الصعوبات التي تدفعنا، بسبب قرفنا وسأمنا، إلى دفع جيوشنا إلى الإبحار ثانية، والتنازل عن انتدابنا.

والنتيجة يمكن تصورها : تمثل انكلترة أمام المجلس الدولي في جنيف بهدف الحصول على إرثنا، وفق جميع الطرق القانونية، وهذا سيكون سهلاً.

هل كانوا قد صرفوا النظر عن هذا البرنامج ؟ لا يمكنني ادعاء هذا، لكنني تَوَصَّلتُ إلى يقين، أن انكلترة، ورغم تصريح أجهزتها الرسمية، ظلت تبدي بالغ التودد نحو اللجنة، وتشجع خفية، جميع الأعمال التي تقوم بها هذه اللجنة ضدنا.

في هذا المخبر إذن نظمت الحركة المضادة للفرنسيين من قبل هؤلاء الطموحين، المهيجّين، المشوشين، المتعصبين، المغامرين، الذين، لجبنهم وشدة تهيبهم من مقاتلتنا بالسلاح بأنفسهم، راحوا يكلفون الدروز المجموعة السكانية الوحيدة، المُحبة للحرب في البلاد، بمهاجمتنا.

كان هؤلاء الناس يعرفون منذ أمد طويل، ويعلمون بأنهم يطيعون، دون تبصر، العائلات الإقطاعية الكبيرة المسيطرة عليهم بشكل مستبد، وكان يكفي لأعدائنا أن يربحوا الرؤساء هؤلاء المغمورين بالوعود، والحائزين على إعانات من سلاح وذخائر، ليقوموا بالتمرد، وبتشكيل العصابات، لإحراز المآثر المعروفة.

كانت اللجنة هي من تصدر الأوامر للمتمردين الذين يقيم بقربهم وبشكل دائم، كثير من أعضائها. والأمر الثابت أنها هي من تنظم الدعاية في الخارج[٢]، وترسل هؤلاء " الموفدين السوريين " إلى جنيف وروما، هؤلاء الذين كانوا يضاعفون المؤامرات، ويسعون إلى أن

---

٢ لقد أقامت في القاهرة " مكتب استخبارات سورية " كان يغذي، بالمقالات والبرقيات، مئتين وإحدى عشرة صحيفة تصدر باللغات العربية، واللاتينية، والهندية حتى إنها تُصدر في نيويورك صحيفة باسمها وباللغة التركية وهي البيرق.
هذه النفقات الصحفية للمراسلين تراوح بين مئتين وثلاث مئة بياستراً مصرية (يعني قرش مصري). وهي تمتلك خمسة وعشرين مراسلاً يتقاضى كل منهم راتباً شهرياً من ثلاثين ليرة استرلينية، والتي ومنذ بداية الثورة المسلحة وللخامس عشر من شهر شباط (فبراير) الأخير قد أنفقت، برقياً، أكثر من أربعمائة وخمسين ألف فرنك.

يُستقبلوا في عصبة الأمم من قبل ممثلي السلطات، وأن يقدموا العرائض، والمذكرات والتقارير. وفي رحابها، كانت تكتب أخيراً، وبأسلوبٍ لا يختلف أبداً، التصريحات والرسائل الموجهة دورياً، باسم الدروز، إلى المفوض السامي للجمهورية، لإبلاغه الشروط التي، يقبل الثائرون السلام بموجبها.

وهكذا، وبهذه الوسائل، وفي مأمن من كل خطر ومن كل عملية انتقام، يستمر أعضاء اللجنة السورية ـ الفلسطينية في نسج مؤامرتهم ضد فرنسة باتهامها ، وأمام أنظار العالم، بإطالة الثورة المصطنعة التي قام بها الدروز*.

هؤلاء هم الرجال، الأعداء، الذين وافق السيد هنري دو جوفنيل، رغم اشمئزازه، أنْ يلتقي بهم في القاهرة. هذا الرجل الذي لا يسعنا إلا أن نشيد كثيراً بإرادته المسالمة، والذي يؤكد، وبصوتٍ عالٍ، رغبته في تحقيق سلم دون انتصار، إن أمكن.

* * *

إن عاصمة صاحب الجلالة فؤاد الأول، ليست للسياحة والأناقة فقط، فهي وسط سياسي بالغ الأهمية أيضاً. ففي القاهرة، طُبِعَتْ الصحف العربية الأكثر أهمية بالنسبة للعدد والنفوذ. وإلى القاهرة، يأتي، ومن الجهات الأكثر بعداً عن العالم الإسلامي مئات السياح، كل عام، لدراسة الأدب، والعلوم، والفقه في جامعة الأزهر القديم جداً، حيث يدرّس الشيوخ الأكثر إجلالاً والأكثر علماً. في القاهرة، وحيث جميع

* من المفيد الاطلاع على وجهة النظر الفرنسية ، والمعاكسة على طول الخط لوجهة نظر السوريين الطامحين إلى الاستقلال ، وتحقيق الدولة التي وعدهم الحلفاء بها .

القوميات، وجميع الخصوصيات المشرقية تتناقش وتنمو. وفي القاهرة، وهناك تعمل منظمات دعائية لا حصر لها، وتتآمر لجان سياسية ومذهبية، وتؤسس، كل يوم، جمعيات سرية إلى حد ما : تركية، وعربية، وبدوية، وسورية، ودرزية، الخ...

هل ثمّة حاجة لأقول لكم إن ما يجري، حالياً، في سورية، يثير التعليقات و تحركات الرأي الأكثر حماساً في هذه المدينة، المدهشة لأكثر من سبب؟ وبناء على هذا، فإن وصول الرجل السياسي الذي يقع عليه، من الآن فصاعداً الحمل الثقيل لتمثيل بلدنا لدى دول المشرق الأربع، الموضوعة تحت الوصاية الفرنسية، يخلق، هنا، انفعالاً عاطفياً قد لا يستطيع المرء أن يشكل عنه فكرة حينما يجهل المشرقي، النزّاع إلى التآمر، الذي يسارع إلى الإمساك بكل مناسبة للهيجان.

* * *

السيد هنري دو جوفنيل موجود في القاهرة منذ أربع وعشرين ساعة. لم يبق شيخ، أو طالب، أو محامٍ، إلاّ وعلّق بحماسة وطلاقة، على وجود المفوض السامي الفرنسي على الأرض المصرية، والجميع، يصرّحون بأنهم مؤهلون لأن يُستقبلوا من قبله، ويقدموا له محاضرة عن سورية، وعن لبنان الكبير، وعن دولة العلويين، وجبل الدروز، وليبينوا له كيف ينبغي عليه أن يتفهم دوره، إن كان لديه بعض القلق فيما يتعلق بمجده، وليقدموا له تعاونهم الثمين.

يطيب للسيد هنري دو جوفنيل أن يردد بأنه مازال صحفياً، وفي نيته استخدام طرائق المهنة في وظيفته الجديدة " إني أقوم بتحقيق، بنقل خبر صحفي " كما يقول. وبناء عليه، استقبل الكثير من البشر، واستمع

إلى كثير من الخطب وإلى نصائح كثيرة أسديت إليه، و إلى كمٍ من الأسرار الكاذبة التي باحوا له بها ! لقد تحمل هذه التدخلات بسكينة فائقة. وأنا أفكر فيه حينما يخلو بنفسه محاولاً تلخيص ما سمعه وغربلة انطباعاته، ساعياً إلى إيجاد حيّز صغير من الحقيقة فيها، عندئذ أظن أنه سيجد نفسه ثملاً قليلاً، ثملاً لكنّه يتسلى إلى حد مذهل، بكل هذه الدمى، بجميع هؤلاء الخبثاء، و المغامرين الذين يتباهى كل واحد منهم بأنه قد أقنعه، وجعله يشاطره وجهة نظره.

هاأنذا أفكر بالمقال الذي كان يمكن أنْ يُرسلَه برقياً إذا ما رأى نفسه هنا ببساطة، موجود كوجودي هنا لتدوين ما أرى، وما أسمع، وما أعتقد فهمه، يوماً بيوم، عن حالة، كلما ازددت اقتراباً منها، كانت تبدو لي أكثر تعقيداً وغموضاً، ويصطدم الصحفي بالشخصية الرسمية التي أصبح عليها، مفوض الجمهورية المزين بالأوسمة، والمُجبَر منذ الصباح على الاتشاح بالوشاح الثلاثي الألوان*، وعلى ارتداء السترة الرسميّة الطويلة، والقبعة العالية الشكل،...

* * *

لقد استعملت، سابقاً، خطأ، كلمة " اقتحام "، وكان ينبغي عليّ أن أكتب " مناوشات". فالاقتحام هو لما سيأتي قريباً. أي لما سيقوم به وفد من اللجنة السورية ـ الفلسطينية الشهيرة التي احتفظت بشرف منح وإظهار البرهان الأكثر نفعاً للسيد دو جوفنيل لما تكون عليه الروح الشرقيّة. لقد وصلت اللجنة لتوها. وهي تنتظر لحظة استقباله في بهو الفندق. وكانت اللجنة مشكلة من قرابة ثلاثين شخصاً: مسيحيين

* الأزرق ، الأبيض ، الأحمر وهي ألوان العلم الفرنسي .

ومسلمين ودروزاً وكان أكثرهم يرتدي الزي الأوروبي، ويعتمر الطربوش. وبعضهم كان يرتدي القفطان والعمامة؟

كانوا مجتمعين حول شخصية طويلة القامة بثياب بالغة الأناقة، ووجه بارز التقاطيع يعترضه شاربان أسودان كثيفان، تحت جفنين مقلوبين، ونظرٍ فاتر.

إنه رئيس الوفد. رئيس اللجنة السورية ـ الفلسطينية. وأحد المرشحين لعرش سورية. وبما أنه ينبغي تسميته باسمه، ومنحه لقباً ينتحله (لا قيمة له) ، إنه الأمير ميشيل لطف الله.

أُدخِلَ هؤلاء السادة إلى قاعة شاسعة في منزل السيد هنري دو جوفنيل. ممثل فرنسة الذي يوجه بعض كلمات الترحيب إلى ضيوفه، مقرونة بالإشارة إلى مقاعد جلوسهم.

كانت الشمس في الخارج حارقة، والحرارة مرتفعة مع أن الوقت كان صباحاً، لذلك كانت مصاريع النوافذ مغلقة، والردهة شبه معتمة بحيث كان الجو مناسباً لمناورات متبادلة.

يجلس الأمير برزانة على مقعد، إلى يمين المفوض السامي. وكان الموفدون يشبهون بطريقة جلوسهم إكليلاً من الزهر على امتداد الجدران. لكن مكان الشرف، مكان الرئاسة إن شئتم، كان مشغولاً من قبل الشيخ رشيد رضا، الدمشقي، الصحفي والشاعر المعروف. إنَّه رجل بدين، يرتدي قفطاناً أخضر فاقعاً، ويعتمر عمامة بيضاء، ويجلس على مقعد، خلف مائدة صغيرة، ويُسهِبُ في الكلام بالعربية بحيث، نعلم بعد ذلك، وبواسطة أحد أصدقائه الدروز، الذي يتكلّم الفرنسيّة الأكثر صحّة، والأكثر وضوحاً، وحتّى، الأكثر تشذيباً، نعلم بأنَّ الشيخ جاء يحكم

بشدّة على غورو، وعلى ويغان، وعلى ساراي، ويحكم كذلك على مساعديهم. فهو يلومهم بشكل خاص لأنهم أرادوا أن يمارسوا سياسة الاستعمار لا سيادة الانتداب على المناطق التابعة لانتدابنا.

كنا نعلم أيضاً أن الشيخ ورفاقه لا ينقمون علينا بهذا القدر لسبب تافه، فمحبتهم لفرنسة حارة وهم يعرضون علينا، وبكل صدق، مساعدتنا على القيام بالمهمة الموكلة إلينا من قِبَل عصبة الأمم.

ويشكر السيد هنري دو جوفنيل متأثراً بهذا القدر من الشعور النبيل، واللطف، ثم يصرح بأنه سيتوجه إلى بيروت تدفعه رغبة حارة في السلم. وخلال ذلك، يقوم شاب وسيم، أسمر الوجه، ذو عينين من لهب. كان، ومنذ برهة من الوقت، يبدي تحمساً، ويطلب الكلام فيُؤذَن له

قال: أرى ما نقدمه نحن لفرنسة، لكني لا أرى ما الذي تأتينا به. وهاأنذا أطلبه!

هذه الكلمات البسيطة كانت منطوقة بصوت مرتجف، وبلهجة لا توصف من الغضب والحنق المكتوم. فتعتلي وجه الأمير مسحة كآبة، ويلتفت بعينيه الميتتين نحو الشاب الذي، جاء ومن دون شك، يظهر صدق نيات الوفد نحونا، لكنه يردد، وشفتاه ترتجفان:

- أتساءل، ما الذي جاءت فرنسة لتفعله عندنا وما الذي تحمله لنا؟

ينظر السيد هنري دو جوفيل بدوره، وبشيء من الاستغراب إلى الشاب المصرّ، ويفهم أن الجلسة قد لا تمتد دون حادث، فيقرر إغلاقها بأسرع ما يمكن من الضبابية، والغموض، وعدم الوضوح.

أكد دو جوفنيل إرادته في التعاون الوثيق مع جميع شعوب الأراضي الموضوعة تحت الانتداب، وصرح بأن أول بادرة سيقوم بها، فور

وصوله إلى بيروت، ستكون في السماح لدولتي لبنان الكبير والعلويين، حيث يسود الهدوء، بالحصول على دستور. أما دولتا سورية وجبل الدروز فسيتمتعان بالامتياز نفسه، فور سيادة النظام فيهما.

تنتهي المقابلة بهذه الكلمات، دون أن يكون الأمير لطف الله قد نطق بلفظة واحدة، ودون أن تكون، قد نُطِقَتْ جملة ذات معنى، من هذا الطرف أو ذاك !

على الدرج، ثم في بهو الفندق، حيث توجد أميركيات جميلات كنَّ عائدات من نزهة الفروسية الصباحية، يرتدين سراويل من جلد أبيض، ويحتسين البورتو، كان المفوضون يقومون بتفاوض طويل، وكانت تكفي مراقبتهم لفهم مدى اضطرابهم، ولاكتشاف انقسامهم إلى معسكرين : أحدهما مؤلف من رجال متزنين، لا يوافقون أبداً على تهجم الشاب ذي العينين الملتهبتين والكلمات المتمادية، والثاني مؤلّف من العناصر الأصغر سناً، الأكثر عنفاً أو الأقل مهارة.

ماذا يفعل الأمير بين هذه الفرق المنقسمة ؟ لا شيء. الوجه والعينان كئيبتان، يبدو عليه الملل إلى حد مذهل. وأخيراً، يقترب المعسكران أحدهما من الآخر. ومن واحد لآخر، يبدو الكلام أقل حماسة. والحركات أكثر لطفاً من قبل. ومن المفروغ منه أنه سيُتَّفَق على خطة عمل. وعندما غادرت اللجنة الظل العذب والمنعش المنتشر في بهو الفندق إلى سعير الشارع، كنت واثقاً بأنها كانت قد قررت القيام بشيء ما

لن يلبث السيد هنري دو جوفنيل حتى يعلم هذا. ولما كان قد خَصَّصَ كامل نهاره لزيارات رسمية، ثم قدَّم مأدبة عشاء كبيرة ضمن حرم فندق " مينا هاوس" الفخم، عندسفح الأهرامات، فلم يعد إلى

الفندق إلاّ في ساعة متأخرة إلى حد ما من الليل، وبعد بضع ساعات، على الأقل، وقبل انطلاق القطار الذي كان سيعيده إلى الإسكندرية، حيث كانت سفينة " أبو الهول " في انتظاره لتقلّه إلى بيروت.

كان لا يزال متأثراً كلياً، منفعلاً كلياً، محتفظاً في عينيه بذكرى المشهد المذهل المتاح له، وللمرة الأولى، في عتبة الصحراء السابحة بنور القمر. كان ميالاً للشاعريّة ، وللأحلام، وللتأملات، وقد نسي انشغالاته السياسية، من دون شك، ونسي الدعوات التي تلقاها، والخطب التي تحملّها أيضاً، وهاهو يغوص، فجأة في الواقع بسبب رسالة وجدها لديه.

كانت الرسالة صادرة عن اللجنة السورية ـ الفلسطينية وكان موقعوها السفهاء والسذج في آن معاً، قد أخذوا علماً بحديث الصباح فاحتفظوا " بالوعود " المقطوعة لهم من قبل سعادة المفوض السامي، وأخذوا يستقوون بالحصول على استسلام من الدروز والعصابات المتحركة في مداخل دمشق، لو، عدل ممثل فرنسة عن الانتداب وفق الاتفاق، وأمر، فور وصوله إلى بيروت، بالإبحار الفوري لجيش المشرق !

الأمر في منتهى البساطة.

هكذا، كانت فرنسة قد قررت إبدال مدني بجنرال فرنسي في سورية. ولأن هذا كان قد صرّح للصحافة، وقبل سفره إلى باريس، عن إرادته المسالمة، ولأنه كان معلوماً إذْ كان مشبعاً بالجو السائد في جنيف، وبشكل خاص، ولأنه كان يُصغي بهدوء وصبر ومجاملة، إلى زائريه، فإنَّ هؤلاء استغلّوا هذا واعتبروه ضعفاً ولم يتورعوا عن التشهير به.

هل أنا بحاجة لأن أقول لكم بأي نوع من المداد، وبأية طريقة حازمة

وازدرائيّة، ردَّ السيد هنري دو جوفنيل على الإنذار التافه المقدم إليه من قبل صاحب السمو الأمير ميشيل لطف الله وأتباعه ؟

لا، فأنا أظن أنه لم يشعر نحوهم سوى بقدر يسير من الاستياء، حتى، ربما، منحهم شيئاً من الامتنان. ألم يكن قد حصل، وبنفقات زهيدة، في كل حال، على الدرس الأكثر منفعة بالسياسة المشرقية حين كان ذاهباً ليُبَاشر مهام عمله، ليجد نفسه عرضة لألف صعوبة كان قد تقبلَّ مجابهتها، ألم يكن قد تقبل، ودون عناء، الدرس الأكثر استفادة في السياسة المشرقية؟

وقليل من هذا الاعتراف كان ينعكس، دون شك، على السيد غيارّ، الذي كان يعود إليه الشرف في تدبير التقاء المفوض السامي للجمهورية في سورية بألدّ أعداء الانتداب...

كان لي الحظ بالعودة إلى القاهرة، وبلقاء وزير فرنسة المفوض بعد ذلك. حدثته عن المقابلة التاريخية في فندق الكونتيننتال وعما نتج عنها.

ورفع الرجل نحوي نظرات عينيه الكبيرتين الساذجتين وقال لي بلهجة كئيبة :

- هل كنتُ عالماً ؟ هل كان بإمكاني أن أعلم ؟.....

عزيزي السيد غيّار !

بينما أصغي إليك، كنت أفكر بهذا الدبلوماسي الآخر، بهذا الفتى الممتاز، القنوع، الساذج، وصاحب العمل الصالح مثلك، والذي كان يمثلنا في صوفيا عام ١٩١٤، والذي كان يؤكد، وبشدة، في كل تقاريره إلى وزارة الخارجية، أنَّ بلغاريا لن تدخل أبداً في حرب ضدنا.

هل كان يعلم ؟

هل كان باستطاعته أن يعلم ؟...

جانوس* بكركي الجليل
أو الأوهام الضائعة

في بداية ظهيرة يوم أحد ما من كانون الأول، وكان الطقس ربيعياً مشمساً في الصباح، غادر السيد هنري دو جوفينيل مقرّه في قصر الصنوبر، ليذهب ساعياً إلى مصالحة فرنسة مع صاحب الغبطة سيدنا حوّيك بطريرك الموارنة.

وبما أنَّ بلدنا كانت على خلاف مع صاحب الغبطة، هذا البطريرك الموقر الذي كان خليفة القديس مارون، راعي قطيع يشمل قرابة ثلاثمائة ألف نعجة ترعى السفوح اللبنانية.

كان لغبطته وللجنرال ساراي " كلمات "، ثم تسَمَمَ نزاعهما. تسَمَمَ إلى درجة اقتضى معها الفصل بين هذين الشيخين المتساويين في العناد، واللذين كان ويغان قد صرّح لغبطته في البداية: " إنني أعتبر أن مباشرة مهمتي تبدأ منذ اليوم الذي تمنحني غبطتكم فيه بركتها "، وأعتبر أن الوصاية أو الانتداب يجب أن تستند إلى الطائفة المارونية، أما الأمر الثاني فكان حظوة السمعة المؤسسة، القائمة بشكل جيّد، دون عدوانيّة، بعدم قبول أيّة تعارضات.

---

* أحد الآلهة الوثنية ، كانوا يمثلونه بوجهين ، وجه أمامي وآخر خلفي ، وإليه ينسب شهر يناير بالإنكليزي Janvery والرمز واضح بالطبع .

ولما لم يكن بالإمكان إبحار الأسقف مغادراً بيروت إلى فرنسا، فقد تمّت مغادرة العسكري الفرنسي*، المعتاد مثل هذا الاستدعاءات المفاجئة إلى حد ما.

من الذي بدأ بإثارة الآخر وتحديه ؟ من الذي بدأ الضربة الأولى ؟ ليس من السهل تبيان ذلك. في الواقع، هذا لا يمثل سوى فائدة واحدة، فائدة رجعية ضعيفة جداً. والأمر الأكيد هو في ضرورة تسوية الأشياء. فممثل الجمهورية الجديد سيهتم بذلك مستخدماً كل إمكاناته، أي أفضل ما في العالم. وفيما يخصه، ستكون مناسبة لرحلة منتصرة عبر الجبل.

إليكم إذاً رواية أمينة جداً نشرها زميلي وصديقي هنري دو كوارب في صحيفة النهار. و.....أعترف بأنني لا أستشهد بهذه الرواية دون شيء من الخبث، وسنرى قريباً لماذا.

تبدأ الرواية بعرض الحقائق التي كانت تبدو غير قابلة للاعتراض، ليس فقط بالنسبة لموظفي وزارة الخارجية، بل أيضاً لغالبية الفرنسيين الذين كانوا، جميعهم، على قناعة تامة بأن كل من هو مسيحي في الشرق صديق لنا.

المسيحية في لبنان ليست مذهباً أو ديناً، في الواقع، إنها تقوم مقام المواطنية، ولنقل، أو مقام حزبي سياسي.

إنها مرادفة لمناصرة فرنسة سياسياً.

يتكلم بفضلها أهل هذه البلاد الفرنسية مثلك ومثلي. لقد طلبوا وصاية فرنسة التي، كانت منذ قرون، مبجلة هنا، كالحامية الكبرى الكريمة.

---

* ويغان

يتابع هنري دو كوارب في يوم الأحد الأخير: كان من الحكمة رؤية السيد هنري دو جوفنيل، في نهاية قاعة شاسعة مزدحمة بحشد كثيف، على منصة مغطاة بالسجاد الشرقي، وقد اكتسى بحلته المدنية الرسمية، ووشح صدره بالوشاح الثلاثي الألوان، وهو يجلس أمام مجثى قرب مقعد، أشبه بعرش تقريباً، حيث كان ثوب البطرك الماروني الحويك ينطرح أرضاً،إنَّه شيخ رائع في الثالثة والثمانين من العمر.

أمام آلاف من المشاهدين المحترمين الذين كانوا قد احتلوا القاعة، والممرات، والدرج، والحديقة، كان المفوض السامي الجديد، أول من يردّ الزيارة للأب القديس. ولو تصرّف بغير هذه الطريقة، لما كان جميع هؤلاء، الذين أتوا من بعيد ليحضروا هذا المشهد قادرين على فهم الحدث.

بالنسبة للبنانيين - الذين هم مسيحيون بنظامهم، كما أن سواهم هم انكليز أو زنوج - لم يكن لهذه الزيارة سوى دلالة واحدة، تتلخص بهذه الجملة التي سمعتها مئة مرة، وأنا أشق طريقي بين الجمهور : "فرنسة لن تتخلى عن لبنان..."

فما يرعب هؤلاء الناس هو " أنْ تتخلى فرنسة عن الانتداب، مع ما يتبعه من نتائج، كالفوضى، والمذابح، والنهب وأخيراً اليد العاملة الأجنبية "

لذلك كان ينبغي رؤية الحماس الذي استُقبل به ممثل فرنسة على طول المسافة بين بيروت وبكركي، مقرّ البطريرك الكائن في الجبل على بعد ثمانية عشر كيلو متراً.

كانت قافلة السيارات الرسمية التي تسلك طريقاً يتعرج فجأة

لتكتشف، وفي كل لحظة، قرية، أوشارعاً، أو منازل عالية، بيضاء، نظيفة، بشرفات تتدلى منها الورود !ولتكتشف رجالاً يعتمرون الطربوش التقليدي، وقد عمّهم اهتياج صادق لدرجة أنه لم يعد هزلياً. كانوا يندفعون إلى مقدمة السيارات ليرغموها على الوقوف، وقد شهروا أعلاماً ضخمة ثلاثية الألوان، بينما راحت مواكب الفتيات والفتيان الصغار، المعتمرين طرابيش الكشاف اللبناني الرمادية اللون، راحت تنشد المارسيليز *.

لقد شاركت في هذا السفر، ومررت تحت أقواس نصر من الأغصان الخضر ثُبتت عليها لافتات كتب عليها،" تحيا فرنسة - تحية إلى السلطة المنتدبة المجيدة "

اجتزت قرى كان علمنا يخفق في نوافذ كل منزل فيها. سمعت الهتافات، وتصفيق النساء، والفتيات، والأطفال. رأيت تلالاً كبيرة من أوراق الورد وهي تتساقط من الشرفات. كنت شاهد عيان، مثل هنري دو كوارب،على" الهيجان الصادق المتجرد من أي هزل "، لرجال اعتمروا الطرابيش يرددون بجنون، ودون كلل، العبارات المكتوبة على أقواس النصر.

لقد شنَّفت أذنيَّ عشرات المرات بل مئات المرات نبرات المارسيليز. رأيت سيدنا حويك جالساً على عرشه في قصره البطركي، مكتسياً، حلّته الأرجوانيّة، حاملاً في عنقه وسام جوقة الشرف، منحنياً نحو زائره الذي كان قد قُدّم إليه مقعد منخفض لدرجة أنه، ولكي يتمتع ببعض الراحة، كان مرغماً على وضع ركبتيه على الأرض تقريباً. وكان الأب الأقدس الماروني يتكلم، بحيوية مدهشة.

---

* Marsseillaise المارسيليز : هو النشيد الوطني الفرنسي .

كانت عيناه تقذفان البرق. وكانت لحيته الجميلة البيضاء ترتجف. وكانت يداه الشمعيتان مضطربتين وبحركة مستمرة....

ماذا كان يقول ؟

أكان يحمّل لعنته لساراي (sarrail) السكيّر الكبير، أم كان يطلب من فرنسة أن تقوم، ودون تأخير، بحملة صليبية جديدة ضد المسلم أو الدرزي ؟

كان الضجيج يسود القاعة، حيث كان كهنة، وأساقفة، ووجهاء، وأبناء من الشعب، وكشافة يتزاحمون. وكان الضجيج يتصاعد من الحدائق حتى إن صوت الأسقف لم يصل إليّ.

كانت ساعة الخُطَب قد دقت. وكان المطارنة، والأعيان الحاضرون، يقبضون في أيديهم على بعض الصفحات، وقد اقتربوا من عرش صاحب الغبطة ليلقوا خطبهم. حينئذ، انكشفت لي العواطف الحقيقية، العواطف المغذاة من قبل الموارنة وكهنتهم نحو فرنسة.

لم أسمع قط، وتحت أي سماء، أحداً يعبّر بمثل هذا التأثر؛ وهذا الحماس، وبهذا الحب لوطني فرنسة، لم ألتق أبداً برجال غُيُر - بهذا القدر - على تعظيم فرنسا، وعلى خدمتها، وعلى الدفاع عنها، إذا لزم الأمر، مثل أولئك الرجال، أتباع القديس مارون، ناسك أنطاكية التقي.

بعد سماعنا هذه البلاغة الزاهرة، الفعّالة، الملتهبة بهذا القدر، كيف يمكننا ألاّ نفكر بأن ساراي كان أحمق جداً، مذنباً إلى حد كبير عندما تخلي عن أصدقاء على هذا القدر من الصدق ؟ وكيف لنا ألاّ نقدر أنَّ صاحب الغبطة، سيدنا الحويك، كان منصفاً حينما كان يتكلم بهذا الحماس الفتي الذي احتفظ به رغم السنين: " إن الانتداب الفرنسي يجب أن يستند إلى الطائفة المارونية أو أن لا يكون ".

كنت، أثناء هذه الاستعدادات، وحينما عدت إلى بيروت، كثير التأثر ولربما أكثر تأثراً منك، هنري دو كوارب، لسماعي غرباء، يظهرون، بهذه العفوية، وهذه القدرة من الحرارة و الحماسة والتعاطف، والاستعداد لجميع التضحيات نحو بلادي.

كنت أعلم أن باريس (Barres) كان قد سبقنا على الطريق المتعرج المؤدي إلى بكركي، وكان قد أجرى حديثاً مطوّلاً مع غبطته، وسأجد أثر هذا الحديث في أحد المجلدين من" تحقيق في بلاد المشرق" وكنت - لحسن الحظ - قد أتيت بهما من فرنسة.لقد قرأتهما، إذ كانا على طاولتي.

في الحقيقة، كنت مرتبكاً ! فكيف كان بإمكان الكاتب الوطني الكبير - الكاثوليكي - أن يظهر هذا القدر من البرودة، ومن السخرية، وأن يقوم بهذا القدر من التحفظات تجاه أسقف فرنسي القلب إلى هذه الدرجة، أسقف لم يتردد، أثناء مؤتمر الصلح،في ركوب البحر، والمجيء إلى باريس ليطلب تكليف بلدنا بممارسة الوصاية على بلده؟

من هو ذاك الذي كان من الممكن أن يكون قد دفعه إلى كتابة جملة كهذه، يتهمّ فيها، بكثير من التحفظ، إنما بكثير من الوضوح، سيادة الحوّيك وحاشيته بالأنانية والغوغائية، التي نخشى أن تدفعنا إلى القيام بأعمال انتقامية ضد الكفار... أي بقية الشعب؟

كان سيدنا الحوّيك والمقربون منه يراقبون باهتمام شديد استعدادات فرنسة. وهم لا يخدعون أنفسهم بفضول لا جدوى منه : كانوا يقدرونه بقدر اهتمامه بلبنان الكبير. أما بالنسبة لهذا الموضوع، فكانت الكلمات فعالة تقريباً بقدر ما ترضيهم. إنهم يرغبون أن يكونوا مطمئنين إلى أن هذه الكلمات ستكون متبوعة بأعمال فعّالة مثلها، لأنَّه وكما يقولون «كانت تثير الآخرين ضدنا »

كم هو ظريف هذا الأسقف المثقل بالتبجيل وبالهموم، هذا الأسقف غير المرهق، البتة، بهذا التقليد القديم لجبل لبنان، الذي يعرض لنا، وببراءة شديدة، ما يقلقه، فهو يعرض صداقاته، وتمنياته ! وبحب شعبه الذي هو أب له، وأسقف له، وملك؛ إنَّه لا يدع دقيقة تمرّ دون أن يعتني، ومن كل قلبه، وبكل ما يتجلى به من لطف، بمصالح حقل مُلْكِه الجميل المادي والروحي. كم يحبنا هذا الرجل. لكن إلى أية درجة يدرك أن صداقته تعود عليه بالفائدة ! وكم كان مسروراً من شهادتنا، لكن إلى أي مدى سيكون غاضباً إذا اتهمناه بأنه غيور على امتيازاته، الموروثة عن سلسلة من الرؤساء الأساقفة الذين سبقوه.

في الغد، كنت أتكلم من بيروت مع صديقي الفرنسي عن زيارتي لبكركي وعن المفاجأة الحزينة التي سببتها لي قراءاتي لباريس (Barres).

كان هذا الصديق مقيماً، منذ سنوات طويلة في لبنان. فهو يعرفه الآن بقدر معرفته لمسقط رأسه، إن لم يكن أكثر. لقد رأى فيه وسمع كثيراً من الأشياء، وحضر كثيراً من الأحداث، وقاسى كثيراً من المفاجآت، واستمع إلى كمٍ هائل من الأسرار، بعضها صادق، وأغلبها مركب، لدرجة أنه لم يعد يفاجئه شيء.

- في هذا البلد، كان يردد عن طيب خاطر، لا يوجد لا حقائق، ولا أكاذيب، لا يوجد سوى روايات.

كان يبتسم وهو يصغي إليّ. ويهز رأسه. وكنت أقرأ في عينيه بعض الشفقة نحوي. وعندما كنت أتوقف، منزعجاً بعض الشيء من هذه الحالة، ومتحفزاً لطلب بعض التوضيحات، كان يقول ببساطة:

- تابع...! تابع.

ولما أتممت قصتي:

- اسمح لي الآن أن أوضح لك القضية.

تناول مصنفاً، أخذ منه محفظة وفتحها. كانت تحتوي على نسخة من صحيفة ألقى الزمن بظلاله الصفراء على أطرافها. وقال لي:

- هذا عدد من صحيفة بيروت. صحيفة يومية عثمانية، المدير المالك هو جورج حرفوش، والمدير الإداري حليم حرفوش، كما يشير العنوان. إنه عدد مؤرخ في ١٨ آب ١٩١٥. " قلت لي للتوّ، بأيّ حماس حيًّا الشعب الماروني السيد هنري دو جوفنيل، وبأيَّة حرارة هتفوا لفرنسة وأنشدوا نشيدها الوطني. اسمحوا لي أن أقرأ لكم بعض المقاطع من قصة زيارة قام بها، وفي أوج الحرب، سعادة جمال باشا، وزير حربية صاحب الجلالة الإمبراطورية، سلطان تركية، قائد الجيش الرابع، والذي كان يمارس أيضاً السلطة العليا على كامل هذه المنطقة.

إليك هذا :

لن ينسى اللبنانيون أبداً التاريخ العطر لهذه الزيارة التي أسست لعصر ضمن الحوليّات المحلية. لذلك لن يستطيعوا ترك فرصة مناسبة كهذه تمرّ دون أن يبدوا صدق تعلقهم بالعرش العثماني، وأن يبدوا امتنانهم من العمل الذي يقوم به سعادة القائد العام.

" كانت جونية المرحلة الأولى من السفر. وكانت المدينة قد تجمّلت. واغتنت بتزيُّنها بالأعلام الوطنية وأكاليل الورود. كان نشاط كبير يعمّ الطريق الرئيسي، بينما كانت الطريق المؤدية إلى المدينة قد اجتاحها حشد كبير جاء مسرعاً من الجوار ليهتف لسعادته لدى مروره. "

" اجتاز جمال باشا المدينة وسط التصفيق، وهو في طريقه إلى

كوناك (Konack) حيث قُدِّمَتْ له وجبة خفيفة. وبعد انتهاء الطعام، قُدِّمَ لجمال باشا قالب من الحلوى على شكل برج إيفل. فقال وهو يقطع البرج، وبسرعة بديهته الجملة المعهودة:

- إنني أحطم رأس العدو. "

ردت على هذه البديهية الذهنية عاصفة من التصفيق، متبوعة، وعلى الفور، بهذا الكلام الحازم من الحضور:

- " وستحطمها أيها الباشا، بعون اللبنانيين. وإذا ما أسعد الحضور الفرصة بإيجاد مناسبة تسمح لهم بالتعبير عن عواطفهم الطافحة من قلوبهم، عن الأعداء، يوماً، ولاسيما الفرنسيين، إذا ما تجرؤوا على المجيء، إلى هنا للتباري، مع علم الهلال المقدس، فسنعرف عندئذ كيف نبرهن لهم أننا جميعنا جنود عثمانيون شجعان مستعدون لدحر المهاجمين الغادرين، والدفاع، بدمنا عن أرض الوطن العثماني المقدسة. "

- " علينا أن نسجل هنا، أن الإكليروس الماروني لم يكفّ، من جهته، عن تعلقه بالقضية العثمانية، مبدياً التمنيات الحارة لانتصار الجيش العثماني وجيش حلفائنا. "

" بعد جونية، زار سعادته، تباعاً، البترون، وشكّا، وأميون. وفي كل مكان، كان قائدنا العام موضع استقبال حماسي من قبل كافة أبناء الشعب المتراكض من جميع الجهات. "

- " كانت أقواس نصر كثيرة مشيدّة على طول مسيرة سعادته، وكثيراً ما كانت أغصان الغار والزهور تتساقط على رأسه. وتلك كانت تقاليد أجدادنا عند تكريم أبطالهم. وتلك كانت أيضاً العادات عند اللبنانيين المحافظين على التقاليد بكل إيمان. وكانت، حسب هذه التقاليد

أيضاً، النساء والأطفال يرشون الطريق بماء الورد وأزهار البرتقال وهم ينشدون أناشيد زاهرة، نترجمها من العربية حرفياً:

- " ليمَّن الله عليك بالنصر. إنك تجلب إلينا السعادة! منذ أن أصبحت بيننا تَعَطَّر هواء الجبل منذ أنْ أصبحتَ بيننا، أهلاً بك. "

" وكان الجمهور الذي يتبع الموكب يصيح بحماس: ليعش عاهلنا جلالة الأمبراطور، عاهلنا. "

من بشرّي، كانت نساء المنطقة متجمعات على الممر ينشدن معاً: " أهلاً بك يا جمال. كنا ننام، قبل مجيئك، على القش الشائك، ولم يكن لنا سوى الأكواخ غير القابلة للسكن. الآن أنت تدافع عنّا والبلد في حالة سلم، لقد بدأنا نشعر بنعمة أجمل أيام الحياة.

في المساء، كانت الإنارة عامة، وانطلقت ألعاب نارية ضخمة، في حين كانت نواقيس القرى تدق بشدة، وفئات القرويين تجوب الأزقة مشيدة بالقائد العام.

توقف صديقي عن القراءة:

- هل فهمت لماذا كنت أبتسم، من شدة تحمّسك، وتأثّرك، واعذرني لقولي، من براءتك؟ ألم يكن كافياً إبدال اسم هنري دو جوفينيل باسم جمال باشا في هذا النص الذي قمت بقراءته، ليصبح هذا المقال الذي يصف سفر المظفر الأول صالحاً للاستعمال غداة جولة الثاني؟ ومتحققاً من ولاء الشعب الماروني للإمبراطورية العثمانية، ومن الفرح الصاخب والغنائي الذي حيَّا به الباشا، يبقى لكم أن تعرفوا كيف تصرف غبطة سيادة الحويّك تجاه الزائر الشريف.

اسمعوا:

أرسل البطريرك الماروني من قِبَله مطرانين لتحية الباشا، والاعتذار منه لعدم الحضور شخصياً إلى بشرّي لسبب صحّي، وليدعو سعادته إلى المرور بـ " الديمان "، مقرّ إقامة البطركية الصيفي. "

" وضّح القائد العام قلة وقته، ولكن، وأمام إلحاح ممثلي البطريرك، نزل عند رغبتهم،ووعد بالمرور على " الديمان " لحاجته لزيارة عدة قرى أخرى،وأضاف إن غاية رحلته الخاصة كانت تسمح له بالاحتفال المباشر مع الشعب اللبناني، والتحري عن احتياجاته عن كثب.

"جمهور مهيب كان متجمعاً حول " الديمان "، يهتف بقوة للقائد الباسل، ولصاحب الغبطة، وقد استقبل البطريرك، المحاط بمطارنته وكهنته، سعادته بجميع وسائل التشريفات المترتبة، مبدين نحوه جلّ شعارات الاحترام.

" لم يكفّ غبطة البطريرك، طيلة مدة الزيارة، عن إبداء تعابيره المحمّلة بمعاني ارتباطه وولائه جهارة.

" لقد صلّى جميع من في الإمبراطورية، بصوت مرتفع لانتصار الجيش العثماني وحلفائه: ألمانيا العظمى، والنمسة وهنغارية اللتين لا تقلان عنها عظمة "*

" ولم يفتْ غبطته أن ينكر، وبعدم اكتراث، جميع الارتباطات بفرنسة، تلك التي كانوا يعزونها إليه قبل بدء العدوان. "

" وعندئذ قام، أحد الكهنة من حاشية البطريرك، وألقى الخطبة التالية: " يا جمال، نحن محاربون جيدون،رغم الثوب الذي نلبسه،

---

* كان شركاء الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى : الإمبراطورية الألمانية ، والإمبراطورية النمساوية المجرية .

وستعلم، إذا ما اصطحبتنا، مقدرتنا الحربية أمام العدو. سنسير في مقدمة جميع الجنود، وستخترق رصاصاتنا أعداء إمبراطوريتنا، إنني أقسم لك بذلك. "

أعاد صديقي، وبعناية كبيرة، العدد الثمين من صحيفة بيروت،إلى الإضبارة التي أخرجها منها.

- سأقدم لك نسخة من أجل وثائقك. وأضاف:

- هاهي أوهامك تضمحل.

لا تكن حزيناً إلى هذا الحد !... لو تعلم كم فقدت من الأوهام منذ أن أقمت في هذا البلد.

" لقلة ما قد تقيم، سوف ترى تلك الأوهام كيف ستزول عنك. "

" عندئذ، ومع اكتسابك بعض الشك والارتياب، فلربما تتبنى هذه الصيغة التي أكررها كفاية، ومن دون مجاملة: " لا يوجد هنا لا حقائق، ولا أكاذيب، لا يوجد إلا روايات مختلفة. "

" إنك تضع كاتماً لحماسك ولسخطك. إياك والمظاهر.لا تتسرع بالحكم على الأشياء، وعلى الرجال، الذين هم جميعهم، أو معظمهم، بوجهين مثل جانوس الذي، كان هو أيضاً، على كل حال، ابن المتوسط الشرقي. "

المفاجأة الحلبية
أو ريكلو الذي أراد أن يصبح ملكاً

الحلبي شلبي.
الحلبي سفيه (مثل عربي)

«السلم للذين يريدون السلم. الحرب للذين يريدون الحرب» هذا ما قاله السيد هنري دو جوفينيل في خطابه أمام الهيئة التمثيلية للبنان الكبير.

" لقد عمّ السلام بلادكم. سأحمل إليها الحياة الدستورية، أي، إمكانية الحصول على القوانين وعلى الشكل الحكومي الذي ترغبون فيه. ودولة العلويين، الحاصلة على السلام أيضاً، ستتمتع بالامتيازات نفسها. وإذا كانت الدول الأخرى، ترغب بالاستفادة من منافع المنظمات الحرة، فهي، تعرف الوسيلة منذ الآن. "

وكما كان الخطيب يتوقع،فهذه الكلمات، ترددت حتى آخر حدود الأراضي الواقعة تحت الانتداب.

من المناسب الاعتراف بأن هذه الكلمات لم تأتِ بأي مفعول فيما يتعلق بدورز سلطان الأطرش، وبالعرب المجاورين لدمشق. وليس

مسموحاً بالشك أبداً أنَّ أولئك وهؤلاء يفضلون الحرب على الانتخابات. لكن من المؤكد أن كلمات السيد هنري دو جوفينيل، ذهبت مع الريح باتجاه الشمال، فارتعشت فرحاً حمص، وحماة، والشرسة حلب نفسها.

إنها قوة البلاغة! لقد حصلت معجزة! فنزلت سكينة رحيبة على هذه المنطقة، التي لم تكف عن الاضطراب منذ بدء الاحتلال.

كانت تتوق إلى نعم الحياة الدستورية، مؤيدة الوصاية بقناعة. مبدية حماساً لفرنسة اللغة إلى درجة لا ينبغي معها الاستغراب إذا ما طلبت غداً، وبكل بساطة، أنْ تصبح مستعمرة للجمهورية!!!.

يقول سكان سورية في حديثهم: "سورية ضلع، وحلب هي اللب واللحم، ودمشق هي العظمة؛ لنضع هذه العظمة في جهة واللحمة في جهة أخرى."

باختصار، يمكن التأكد من أنهم لا يريدون أن يكون لهم أي شيء مشترك مع أعداء الانتداب. بل إنهم يطلبون فصلهم عن الدمشقيين المشاغبين، وإعطاءهم الاستقلال الإداري والسياسي. والتقارير المرسلة من قبل السيد ريكلو (Reclus) قاطعة بالنسبة لهذه النقطة.

من هو السيد ريكلو؟

السيد ريكلو هو ريكلو. المنتمي إلى الأسرة الشهيرة. وهو مفوض، أو حاكم الدولة السورية في حلب، والذي يمتلك مقراً في دمشق، سليل أسرة أونيزيم (Onesime) الكبير، أو إليزيه (Elisee) الكبير، وهو عين فرنسة على طريق قوافل فارس والهند.

السيد ريكلو رجل رزين، حتى إنه قليل الكلام بعض الشيء أيضاً. لم تساوره نفسه الإدارية بنزوة أبداً. وما يؤكد هذه الرزانة بهذا القدر من اليقين، هو التعبير نفسه عن الحقيقة.

لو كنت مفوضاً سامياً ـ وهذا الذي لا أتمناه لك ـ ما الذي كنت ستقوله بعد قراءة تقارير حاسمة كتلك التي للسيد ريكلو؟ مثل هذا:

- ممتاز!... كل هذا ينطبق، بشكل لا يمكن تجاوزه، على سياستي القائمة على فصل المناطق الثائرة تدريجياً، عن بعضها البعض، ثم غمر المناطق التي يؤكد سكانها أن فرنسة هي أمهم الثانية.... بالمنافع. إذاً، سأمنح الحلبيين إمكانية الانتخاب وتهيئة دستورهم. وهذا لا يمكن أن يخفق في إثارة عاطفة عميقة لدى جماعة دمشق وجبل الدروز.

بعد هذا الكلام ؟ ماذا كنت تفعل؟

تشبهاً بهارون الرشيد الذي لم يكن ليتوانى عن التأكد من كل شيء، سافرت، مباشرة، إلى حلب. والسيد هنري دو جوفينيل لن يهمل ذلك.

كيف يمكن لفنان، مشبع بالآداب، كما تعرفون، ألا يحتفظ بذكرى لا تنسى عن هذه الرحلة التي تمّت نصفها بالسيارة، ونصفها بقطارمحروس بمفرزة من المشاة، وبمصفّحة مقاتلة عبر إحدى البلاد الأكثر غنى، إن لم نقل الأغنى، في عالم الأساطير الوثنية، والأساطير التلمودية، وأساطير التاريخ؟

بلاد توالت عليها الحضارات الفينيقية، والرومانية، والبيزنطية، والعربية، وعانت من الغزوات الآشورية، والمغولية، ونصب فيها الصليبيون القلاع المحصنة التي يشبه خرابها خراب قلعة طرابلس، حيث أقامت الأميرة البعيدة التي جاءت إلى الأمير غودفروا روديل (Godefroy Rudel) ليموت بين ذراعيها. بلاد تنطق بمقدار هائل من البلاغة والخيال.

بلاد منها قرية تدعى جبيل كانت هي «بيبلوس أدونيس» المقدسة،

وفيها مدينة ما منقوشة على الخريطة تحت اسم حماة، وحمص القديمة حيث ولد هيلوغابال* (Heliogabale)!

بلاد خائرة القوى منهكة من أبهتها السالفة، إنما قابلة، كما يقولون، لأن تنتج القمح بكثرة إذا ما زرع هذا القمح يوماً،وفق الأساليب الحديثة حيث لم يعد يوجد، في سفوح الجبال التي تحيط بها، سوى سهول شاسعة محمرة اللون، عارية بأكملها، مبذورة بالحجارة تجتازها أرتال طويلة من الإبل وحيث، يرتفع، بعيداً، مجمع الأكواخ المدببة المبنية من الطين، والمستعملة كملجأ لعائلات فقيرة من الرعاة.

أقبل السكان مسرعين، من جميع المدن و القرى الكائنة على طول الطريق الحديدي،يتقدمهم مخاتيرهم، ورؤساؤهم الروحيون،وفرسان يمتطون خيولاً صغيرة الحجم، صُبِغَتْ أذنابها وأعرافها بالحنّاء، وقارعو الطبول، ونافخو المزامير يهزجون بأنغامٍ حادّة لتحية ممثل السلطة المنتدبة، وليقدموا له الزهور والتهاني، ويكلموه عن فرنسا العزيزة، وعن الضلع السوري الذي كان اللب فيه يريد الانفصال عن العظم.

يتوقف القطار.

كان «السلطان جوفينيل» يستمع إلى الخطب التي كانت تترجم له جملة فجملة. ويرد عليها. وعندما كان القطار يستأنف سيره، كان الفرسان، وبعضهم من المتقدمين في السن، ينطلقون مسرعين، منتصبين على خيولهم، يتبعون الرتل لمسافة كيلو مترين، ثلاثة، أربعة وهم يهتفون بعبارات تحملها الريح لا نشكُّ في أنها كانت تلك التي تشكل اسم وطننا البعيد.

---

* إمبراطور روما ذو الأصل الحمصي .

في حلب، كانت الأعلام الفرنسية تتمايل في النوافذ، والسجاد الرائع يتدلى من الشرفات، والجوقة تعزف النشيد الوطني الفرنسي. إلا أنَّ من الواجب القول إن المسلم الحقيقي، كان الحلبي الوحيد... الذي كان وجوده نادراً على الطريق الممتدة من المحطة إلى قاعة استقبال المقر. فالآخرون هم المرحبون، ولا شك أن السيد هنري دو جوفينيل، الذي كان ينظر بوضوح وبسرعة، لم تفته ملاحظة ذلك.

كان السيد ريكلو يبدو راضياً عن نفسه وعن أمور الحياة. والسيدة ريكلو تشرب كأس النعيم المترعة.

كان عين فرنسة على طريق قوافل فارس والهند، وكان قد ردد مشافهة على المفوض السامي، ما كان قد عَلِمَه عن طريق الرسائل والبرقيات والهواتف، من أنَّ التحركات كانت تشتّد من ساعة لأخرى وأن الأمر ليس إلا مسألة وقت يسير حتى تقوم حكومات مستقلة في حلب، وحمص، وحماة وغيرها من الأمكنة.

ولدعم أقواله، فقد رمى بالحرس!

بعبارات أخرى، طلب من قواصه أن يفتح باباً. ظهرت من خلفه مجموعة من الزعماء العرب الرائعين، المعتمرين الكوفية الحريرية المزخرفة المثبتة على الهامة بواسطة التاج المثلث المذهَّب للعقال، وقد ألقوا فوق أثوابهم البيضاء، عباءات أكثر تطريزاً من ألبسة الكرادلة.

كانت لهم وجوه من البرونز، وأعين من الميناء، ولاشيء يضاهي النبل الذي كانوا من خلاله ينحنون أمام ممثل السلطة المنتدبة، ويرسمون بأيديهم الملوحة في الفضاء التحية الشرقية: " أحمل في قلبي، وعلى شفتي وعلى جبهتي، غبار حذائك. "

هؤلاء السادة كانوا حاملي صوت سورية الشمالية كلها، متعبين من التباسها بسورية دمشق، ولا تطمح إلاَّ إلى الانفصال عنها، وإلى الانتخاب، وإلى الحصول على دستور، و إلى إظهار نوعية الشعور والعواطف التي يكنوها لفرنسة.

أخذ كل منهم دوره في الكلام، وألقى خطبة، كانت،لحسن الحظ، قصيرة إلى حد ما لكن فعّالة، ترجمها المترجم الذي، بواسطته،كان السيد هنري دو جوفنييل قد استمع إلى قصّة ضلع اللحم خمساً وعشرين مرة.

كان يصغي إليهم كما كان يعرف كيف يصغي، مبدياً جميع مظاهر الصبر الصادق، وكان يداعب خديه وذقنه برقة دون أن يتثاءب. لكن.. كان هناك ظل ينزلق على نظراته، ظل غيم تائه على سطح بحيرة مشمس.

أهو الملل؟ أم بداية الارتياب؟

وكانت طيلة مرور هذا المشهد المنظم بهذا القدر من الدقة، بل لربما المنظم أكثر مما يجب ، كانت نظرات السيد ريكلو إلى رئيسه الكبير أكثر ابتهاجاً، وكانت هذه النظرات تقول:

- هل تقدمت كثيراً، يا سيادة المفوض السامي ؟

" هل اكتشفت أنَّ رغباتي هي الحقائق؟ الآن وبعد أن استمعت إلى سورية الشمالية تتكلم بكاملها وبأصوات شخصيات ألف ليلة وليلة الفخمة هذه، هل اقتنعت بأن الساعة قد حانت لإحداث تقطيع جديد في المناطق الواقعة تحت الانتداب ؟ ألم تقتنع بأن غورو كان محقاً عندما، وبسيف لا يعرف التردد، كان قد قسم هذه المناطق إلى خمس دول، وأن خلفاءه كانوا مذنبين فعلاً عندما خفضوا العدد.

" ولو كانت دولة حلب مازالت باقية، لأصبحت حاكمها، بالضرورة، عوضاً عن أن أكون هنا "مرؤوساً " لحاكم دمشق.

" صدقني، ياسيادة المفوض السامي، أنتم تستحقون أيضاً أن يدعوكم التاريخ : جوفنيل الرشيد*، أي العادل، عندما تكونون قد صنعتم من ريكلو ملكاً. "

وكان يرى في عيني السيدة ريكلو أنها كانت تفكر بمثل ما كان يفكر فيه زوجها.

والآن، ليؤتَ بالضبوط! أمَرَ عين فرنسة على طريق قوافل فارس والهند.

غادر القواص القاعة، ثم ظهر فيها ثانية بعد قليل منحنياً تحت حمل نصف قنطار من الورق أفرغه على السجادة.

وعندها حصل ما يلي: أخذ المرشح لملكة حلب واحدة من الملفات التي غدت، بين يديه السريعتين، قطعة ملساء بطول أربعة أمتار على الأقل، مزيَّنة بتواقيع جميلة مكتوبة بالأسود، ومدموغة بأختام بنفسجية اللون. ثم ملفاً آخر، ثم آخر أيضاً.

- إنها المزابط، أيها السيد المفوض السامي، قال السيد ريكلو.

- لا بأس، قال السيد هنري دو جوفنيل ببساطة.

مزابط أو عرائض يطلب فيها، ألوف وألوف من سكان سورية الشمالية، استقلالهم.

- لا بأس، قال السيد هنري دو جوفينيل مرة أخرى.

---

* تشبهاً بهارون الرشيد في ألف ليلة حسب النظرة الاستشراقية

بقي السيد هنري دو جوفنيل في حلب لمدة ستٍ وثلاثين ساعة، وكان هو والله وحده يعلمان كم مرة سمع خطباً انفصالية خلال حفلات الشاي، وخلال المآدب التي أقيمت له. وكم قُدِّم له من المخاتير والمتصرفين والمفتين والأئمة الذين رووا له قصة ضلع اللحم!

هذا فيما يخصه ! كما تقول شهرزاد.

أما فيما يخصني، فقد ذهبت لزيارة القلعة، كتلة مذهلة من الحجارة السود والوردية اللون، مشيّدة من قبل العرب الفاتحين على قمة رابية مصطنعة لا يضاهي جبروت قوّتها العاتية سوى قوة قبور المماليك في القاهرة.

منتقلاً بين ركام الخراب و الدمار، كنت مذهولاً بثخانة هذه الجدران، وارتفاع هذه الأبراج، وجرأة هذه الجسور. كنت معجباً بهذه الأبواب من الحديد الصلب، ومعالم القصور والمساجد والحمامات المشيّدة من قبل أمراء مضوا، هذه القنطرة المحنية التي كان يستطيع ارتقاءها عشرون حصاناً يمتطيها رجال بسلاحهم دفعة واحدة.

مع ذلك، كنت محتفظاً بشيء كاف من حرية الفكر لأهنئ نفسي بالوضع السياسي الذي، بفضل عين فرنسة على طريق قوافل فارس والهند ألهمت به حينما وجدت نفسي أمام ثغرة عريضة أحدثها في السور فعل الزمن، أي الزلازل الأرضية، أو بفعل البشر الذي يؤكده جنونهم المخرِّب باندفاعهم وحنقهم المتوازيين في جميع الآفاق.

رأيت عبر هذه الثغرة، مدينة ممتدة حتى حدود الصحراء، تلتمع عن بعد متوهجة تحت الشمس. كانت محاطة بحدائق ومقابر شاسعة ومزروعة بأشجار السرو، ومكونة من عدد لا يحصى من المنازل الصغيرة

المكعبة. وكانت المآذن تبرز، هنا وهناك، والقباب تتكور واحدة إثر أخرى.

كنت أظن نفسي ألعوبة للسراب الذي سبق له، وفي ممرات عديدة، أن أراني مدناً على البحر، وجبالاً على السهل، وشواطئ يضربها الموج في وسط البراري. وكنت أسأل، مع ذلك، ضابط الأشغال الذي كان يرافقني:

ما هذا؟

ـ مدينة السكان الأصليين. المدينة العربية بامتياز. إنها مبنيّة فوق تعرج معقّد من السراديب التي تنتهي إلى هذه القلعة، والتي كانت تسمح بتموينها أثناء الحصارات الطويلة التي قاومتها. تفحصت جزءاً بسيطاً جداً من هذه السراديب محاولاً الحصول على سرّها، أو وضع مخطط لها. وجدت، وعند كل خطوة، هياكل عظمية لجماعات كانت قد تاهت فيها..... أنا شخصياً، عندما أذهب إلى هذه السراديب أذهب يرافقني دائماً، عشرة من جنود الهندسة، وأستخدم جميع وسائل الاتجاه والاختبار المعروفة. مع ذلك، ولو لم أكن، أنا ورجالي، مربوطين بحبال، كما كان يفعل متسلقو جبال الآلب، لكنا تهنا، من دون شك، وأصابنا ما أصاب الذين عثرنا على آثارهم.

" البارحة أيضاً، حصل لي ما يلي : كنت قد سلكت، بمفردي، في ممر ـ متاهة، وكنت قد اصطحبت هاتفاً نقالاً، متصلاً، بواسطة شريط لين. بجهاز كان أحد رجالي، من الذين بقوا في المدخل، ممسكاً به، كنت أسير بهدوء،مسجلاً، بعناية، مستوى الممر، جميع جهاته، وجميع زواياه. فجأة، حصلت معي مفاجأة. لاحظت أن شريطي الذي كان مجروراً

خلفي، كان قد اشتبك بالأرض. عدت إلى الوراء، ولو لم آخذ حذري لكنت انتهيت. وما كانت خطتي لتسمح لي بأن أجد طريقي. أنا لم أفهم بعد ما الذي حدث لي.

مدّ الضابط يده باتجاه المدينة القديمة..

مئة ألف شخص، وربما أكثر، يعيشون منعزلين هنا، دون قيد نفوس، دون إحصاء أو قيود. إنهم، ربما لم يأتوا أبداً، أو تقريباً إلى المدينة التي تعرفونها، ولا أحد يستطيع، بالطبع، القول ما الذي يفكرون فيه، وماذا الذي يرغبون فيه. تمتلكون أمامكم السر الآسيوي والإسلامي.

* * *

بعد ثلاث ساعات، كنت أدخل إلى حلب الحديثة، الرسمية، التي كانت روحها، وقلبها، وكليتاها، قد سُبِرَت من قبل السيد ريكلو، حلب ذات الشوارع العريضة، حلب التجارة، والمصرف، والفنادق المعروفة على الطريقة الأوروبية، وحتى المراقص والمقاهي التي تنشد المنوعات: كنت قد رجعت لتوي من زيارة للمدينة العربية. مخفوراً بعريفين مسلّحين، كانا قد شاهداني سالكاً في هذه الأمكنة، حيث يجازف قليل من الأوربيين في الدخول، مستشعرين، دون شك، بعض الخوف المتعلق بحمايتي، فهما يتبعانني، بصورة عفوية. كنت قد اجتزت أزقة ضيقة متعرجة، محاطة بمنازل ذات أبواب مصفّحة، ونوافذ مسيّجة بالحديد فوق المشربيات الخشبية حيث الشعب الحضري يعيش محبوساً، ومتخفياً.

في الساحات، في الأسواق، وعلى أبواب الخانات الكبرى المسكونة من قبل بدو الصحراء، وعلى مقاعد المقاهي الخشبية، كنت قد رأيت

هؤلاء البدو، متدثرين بعباءاتهم الجميلة المصنوعة من وبر الإبل أو من الحرير، هؤلاء البدو ذوو الهيبة الرائعة، الذين نعرف غناهم، وسطوتهم، وقيمهم الحربية، والذين نعرف امتلاكهم لأسلحة وذخيرة كثيرة، لكن ما أعمق جهلنا بشعورهم!...

متأملاً ما كنت قد رأيت، مفكراً بالفضول المتوقّد، إن لم أقل بالشعور الذي كنت قد أثرته عند تسكعي عبر المدينة القديمة، متذكراً تعابير بعض النظرات، كنت أفكر بالكلمات المتفائلة لدرجة ما، القاطعة أيضاً لدرجة ما، وذلك لسليل الأسرة الشهيرة، أفكّر باحتجاجات شخصيات ألف ليلة وليلة المقدَّمين من قبله إلى السيد هنري دو جوفينيل، مفكراً بالمآدب، وبحفلات الشاي، وبالخطب الرسمية، وبالبوَح الخاص، بالمظابط المبرقشة الممدودة على سجادة المقرّ، وبقصة ضلع اللحم المكررة عدة مرات. وكنت أسمح لنفسي أن أخمّن:

- أخشى أن يكون هذا الـ "ريكلو"، الذي يرغب وبحرارة في أن يكون ملكاً، قد انخدع ووقع في الأوهام. قبل أن يرتبط ويربط المفوض السامي للجمهورية، بهذه المغامرة، ألم يكن عليه أن يقوم، بهذه، الجولة القصيرة التي أعود منها؟

« لماذا، نعم لماذا لم يخفض عين فرنسة على طريق قوافل فارس والهند نظره نحو تجمع المنازل الصغيرة بأسطحها المنبسطة التي تمتد بين قلعة الأمراء القديمة والصحراء »؟

* * *

خمسة عشر يوماً انقضت. جرت فيها الانتخابات في ولاية حلب بأسرها واجتمع المجلس المُشَكَّل. وخلال الساعة الأولى من اجتماعه، قام

باقتراع جماعي. يؤكد ارتباطه بدمشق، هذا الارتباط غير القابل للتبديل.

وللاحتجاج على محاولة ما قد تحصل لتقسيم جديد للأراضي الموضوعة تحت الانتداب. وللإعلان عن وفائه لفكرة الوحدة السورية. ولكي يظهروا بأنهم، من خلال الاقتراع، يعبرّونِ عن شعور الشعب. هكذا حملوا نصف قنطار من الاعتراضات المزينَّة بتواقيع جميلة بخط اليد الأسود، مهورة بأختام بنفسجية اللون، فحواها أن كل من له قيمة في سورية الشمالية يعلن أن حلب ودمشق لا تشكلان سوى جسم واحد له الدماغ نفسه، والأحشاء نفسها. وأن لبّ الضلع من اللحم لا يريد أن ينفصل عن العظم.

في هذه المغامرة، لم يفقد السيد ريكلو سوى الحظ بالحصول على ترقية. وفرنسة فقدت شيئاً من هيبتها. وهذا أكثر خطراً.

قضية ساراي

ساراي !

يكفي زجُّ هذا الاسم في الحديث، لتثار جميع الأفكار، وليفقد الرجال، الأكثر اتزاناً، والأكثر معقولية، جميع المعايير، وكلّ تفكير نقدي، وكلّ موضوعية.

ولذكر الذي يدعونه "لواء الجمهورية" يذهب البعض إلى حد المغالاة، ويحملّ، البعض الآخر الـ "السياسي الوضيع" جميع الخطايا، وينسبون إليه الأعمال الأكثر وضاعة، وينكرون حتى صفاته والخدمات الرائعة التي قدمها للوطن. وهكذا، عندما كان يُشَار إلى اسم زولا (zola)، بيكار (Picquart)، دو بريسانس (De Pressense)، دو ميربو (De Mirbeau)، دو جوييه (De Gohier) ما بين ١٨٩٤ و ١٨٩٩، كان يعّد هؤلاء الرجال أبطالاً أو خونة، حسب الفريق الذي كان ينتمي إليه المرء.

في الحقيقة، لم يُعرف لماذا كان ساراي يمثّل الجيش والفكر الديمقراطي، في أعين الجمهوريين اليساريين. لقد جاءت به رابطة حقوق الإنسان ليجلس في لجنتها المركزية. وأوكلت إليه جمعيات عديدة رئاستها كنوع من رئاسة الشرف. حتّى من كانوا ضد العسكر لم يكونوا بعيدين عن المُطَالَبَة به كواحد من أتباعهم، أمر مضحك حقاً.

مضحك بقدر ما، لو علمت غداً بأن سيادة رئيس أساقفة باريس قد أصبح ملحداً، أو أن السيد جان هنسي، قد أصبح رئيساً لرابطة ضد المدمنين على الكحول!

وأخيراً فما من أحد يمكن إجباره على قبول رتبة الجنرالات.

فللحصول على النجوم يجب على المرء أن يكون قد أعطى عدة ضمانات صحيحة المعتقد، ولست أعلم - البتة - بأن زهر النسرين الأحمر يمكن له أن يترعرع بين أوراق السنديان! إن الرجعيين يكرهون ساراي، ويلومون ميله نحو السياسة. ويتهمونه بالتعصب، وبأنه ضد الكهنوتية، وهم، باستعمالهم برهاناً ذا وزن، يؤكدون بأنه منتم للماسونية الفرنسيّة، الأمر الذي هو غير صحيح على أية حال.

أهناك حادث مهم ليس متصلاً باسم ساراي؟ الأفكار تضطرب والصحف تقوم بالاتهامات ضد الرجل وتنشد... دون أن تكلف نفسها التحري عن الوقائع.

هل تُقدم القضية إلى المجلس ؟

وهذا المجلس الذي لم يعد مشكلاً من قضاة، بل من خريجين، ومن حزبيين. متساوين في العمى، متساوين في التزاحم: البعض للدفاع عن معبودهم، وعدم القبول بأن ترفع عليه يد مدنسة، والبعض الآخر للتشهير، بذلك الذي كان، في أثناء الحرب، أحد أشهر قواد جيشنا.

من المؤكد أن حماساً على هذا القدر، للتعبير عن الحقيقة، كان يحرك، فقط أولئك الذين لا يعرفون ساراي جيداً ولم يروه في العمل.

المطلعون كانوا أكثر تحفظاً. وهم وحدهم من يستطيعون وصف الجنرال، بشكل أكثر ملاءمة. وهم وحدهم من يستطيع إظهار مزايا هذا

الوجه ومساوئه. لكن كيف للمرء أن يسمع بين هذا الكم من المخبولين، من الطرشان المصرين على أن يظلوا كما هم ؟ ثم أخيراً، كيف، ولماذا ؟ يُعَدُّ المرء منافقاً في عيون البعض، ومرضياً في عيون الآخرين ؟ سأذهب إلى مواجهة هاتين المخاطرتين مبتهجاً، ملتفتاً، أولاً، إلى خصوم الجنرال - المقتربين قليلاً من الجمهورية - وأقول لهم :

- من الممكن أن يكون لساراي ميل واضح ـ كثير الوضوح للسياسة. لكن هل جميع الجنرالات الآخرين محايدون لهذه الدرجة ؟ ألم يكن، في ذلك، ادعاء بأن السياسة لا تمارس في الجيش ؟

قد تقول، إن ساراي متحزب. لا يقرِّب سوى الراديكاليين الاشتراكيين، ولا يجد مزية إلا في الماسونيين الفرنسيين. وهو يحتفظ بمحاباته وفضله لضباط من هذه النوعية، ويمنحهم الترفيعات والأوسمة. أما الآخرون فهو يعاملهم بشدة ويضايقهم.

وهذه أسطورة! ففي سالونيك، ولمدة سنوات ثلاث كنت شاهداً على إنجاز ساراي، كان هو من استدعى إلى ديوان حربه رجالاً مثل الدوق موشي، والسيد فيل موران الذين، وكما اعتقده على الأقل، كانوا جيدي التفكير من النواحي كافة، مثل المرحوم لورانت فيبر، المطلوب من قِبَل "العمل الفرنسي" عوضاً عن واحد من أتباعه، وساراي لم يسئ إطلاقاً لمرؤوس له من أجل أفكاره أو معتقداته.

لم يعارض ساراي، أبداً، تظاهرة دينية. وكان يمارس أفضل العلاقات وأكثرها وداً مع بعض الكهنة، خصوصاً مع لوبري، الزائر العام للعازارين، وواحد من الرجال الذين كان يستشيرهم بطيبة خاطر بخصوص أحداث مقدونيا.

كيف، إذاً، لو كان ساراي ذلك المعادي للكهنوت العنيف، كما كان يقال، هل كان يلتمس خدمات أسقف الكنيسة الإصلاحية عندما تزوج؟

لكنها هنا براهين تافهة لمجابهة جندي يستطيع أن يتباهى بخدمات باهرة، وواحد من صانعي انتصار " المارن "، ومنظِّم انتصار مقدونيا، هذا الانتصار الذي منحه كليمنصو لواحد آخر ليحرُم منه رجل فيردان وسالونيك (Verdun & Salonique)، الذي كان يبغضه ربما لأنه ابتلي بشخصية بغيضة أيضاً كشخصيته نفسها.

وهذا شيء، أو أحد الأشياء التي لن يُسامَحَ فيها هذا العجوز الفرديني* لأنه، في النتيجة، ورغم الهجمات التي كان قد تعرض لها، في فرنسة، من قبل خصوم لم يخجلوا من القيام بها ضده، إن في خضم الحرب أو في أوج نشاط الاتحاد المقدس، ورغم أنهم كانوا قد رفضوا تقديم الدعم العسكري له، ورغم أن جيشه كان قد هلك جزء كبير منه بفعل الملاريا، فقد صمد ساراي، خلال ثلاث سنوات في مقدونيا.

لماذا كان عليه أن يجابه المشاكل التي لا حصر لها، والأوامر الأكثر اختلافاً، تلك التي حلّها كعسكري كبير، كمدير ممتاز، وكان على الذين زاروا معسكر سالونيك المحصن أن يحيّوا عمله الرائع حقاً.

وعندما كان الآخرون ينتظرون، نياماً، أن يأتيهم النصر عن طريق قوة خارقة، كان ساراي يعمل دون هوادة.

كان يعمل من أجل مخطَّطه. وعندما أصبح هذا المخطَّط جاهزاً، وتمت

---

* نسبة إلى معركة فردان ، الحرب الأكثر دموية في الحرب العالمية الأولى ، حيث قاومت فرنسة منتصرة الهجوم الألماني الأكثر عنفاً في الفترة مابين شباط (فبراير) وكانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩١٦ .

له جميع الترتيبات، استُدعِي بشراسة، وأُعطِيت لـ غيوم (Guillaumat) الذي خلفه، ثم لـ فرانشيه دو اسبيري Franchet d' Esperey، وقد أعطي هذان ورق الغار، ولم يعد المقصود بعد ذلك سوى لومه.

كان عاراً كبيراً على الجمهورية: أن لم يُسَمَّ ساراي أبداً مارشالاً لفرنسة، ووحده، من بين الجنرالات الذين كانوا قادة في وجه العدو، لم يسر أبداً تحت قوس النصر في ١٤ تموز ١٩١٩. كان كليمنصو قد شفى غليله.

- لكن، قد يقال، ها أنت أيضاً تشترك في تأبين ساراي. وأنت أيضاً واحد من متملقيه.

مهلاً.. مهلاً ! لقد كتبت بأنه مثل شخصيات المستوى الأول كافة، فإِنَّ مستوى ساراي، يحمل أنواراً وظلالاً، وقد شاهدنا المستوى الأول، وإليكم الثاني:

أقبل أن يكون ساراي، مثل كليمنصو، مرتبطاً بمبادئ ٨٩. لكن ساراي ديمقراطي، وساراي مطلوب من قبل الديمقراطيين، ومستند إليهم، ساراي مُتبنَّى، ومُدلَّل، ومُدافَع عنه من قبل الأنظمة والجماعات الديمقراطية.

آه ! لا.

إنه عنيف وفظ ! ولا يتقبل أية معارضة، وهو محب لطعم السلطة، مقتنع في أنه صاحب الحق في كل شيء، ومحطّم لمن يقاومه ولو كان أفضل أصدقائه وأخلصهم، بالإضافة إلى ذلك، كان ناكراً للجميل، ولم يكن ديمقراطياً!

بل هو طاغية، مستبد !

أما بالنسبة لوجوده في اللجنة المركزية لحقوق الإنسان، فهذا أمر يربكني. وهو يربك جميع الذين كانوا رفاقي في جيش الشرق والذين يجمّعون ذكرياتهم. لأنه، في النهاية، كان أي جنرال أقل جدارة بالشفقة من ساراي. فأيهم أصدر، قرارات إبعاد إلى المعسكرات كما أصدر؟ وأيهم أمر بإعدامات دون محاكمة بقدر ما أمر؟ أيهم، أخيراً، عجّل بتنفيذ الإعدامات الصادرة عن الديوان العرفي للحيلولة دون اللجوء إلى تقديم طلبات العفو أو النقض.

أكتفي هنا بالتذكير، ولصالح المطّلعين، بمغامرة تيموستكل (Themistocle)، مدير شرطة كوريتزا الألبانية، الذي مَثَلَ أمام ديوان حرب سالونيك، في الأسبوع نفسه حصل على وسام الصليب الحربي، وحُكِمَ عليه بالموت في الساعة السادسة مساءً، وأُعدِمَ في اليوم التالي، فجراً، في معسكر زيتيلينك.

ساراي ديموقراطي ! ساراي عضو اللجنة المركزية لحقوق الإنسان، ومطالب بإلغاء الأحكام العرفية ! لابد أن يكون المطالب بهذا حالماً[٣].

من الممكن أن يتمسك، بخطابات أصدقائه السياسيين، في ساعات

---

٣ كان ينوي أن يؤسس فرعاً لرابطة حقوق الإنسان في بيروت . جمهوري يساري ، مناضل مخلص بضمير حي ونزاهة تامة . والذي قال لمن كاشفه بمشروعه بأنه سينتمي إليه : يا جنرالي ، إنك لن تنتمي إليه ؟

- ولماذا ؟

- لأنك يجب أن تنفصل من الرابطة ليس فقط كعضو في اللجنة المركزية ، بل كمنتسب بسيط . ألم تمنع فرنسيي سورية من حرية الاجتماع التي كانوا متمتعين بها دائماً والتي احترمها أسلافك جميعهم ؟ ألم تصادر حرية الإعلام ؟

ولم يصرّ ساراي .

البطالة والكسل، وأن يكتب بالحبر نفسه الذي يستخدمونه. لكن أن تعطى له قيادة جديدة، أن تعطى له سلطة دون قيد، فسيعود مرة أخرى ساراي، يعني، خليفة، ودون تخييل.

* * *

منذ أن وجدت في سورية، وأنا أسعى جاهداً لاختبار الحالة السياسية والعسكرية، كنت أتحدث يومياً مع عدد من السوريين من جميع المعتقدات، ومع عدد من الفرنسيين المنتمين لجميع الأحزاب، وكان اسم ساراي يتردد دون انقطاع، في الأحاديث التي فتحت معي.

كلمني خصوم الجنرال ومؤيدوه عنه بحماس: البعض وإن كانوا قلة، يمدحه دون تحفظ، وآخرون، أولئك الذين يشكلون الأكثرية العظمى، كانوا يعدونه مسؤولاً عن جميع الصعوبات التي لاقيناها هنا.

استمعت إلى هؤلاء وأولئك، وواجهت التأكيدات، وتحققت من الوقائع وأعتقد أنني حددت، بقدر ما، القضية وذلك بالاستشهاد بجملتين، أذهلتاني، بين أخريات كثيرات.

قال الأولى ضابط، وهو صديقي منذ سنوات طويلة. إنه يحب ساراي ويعجب به. خدمه بإخلاص في فرنسة، وفي مقدونيا، وفي سورية. وظل أميناً ثابتاً له في ساعات فقدان الحظوة.

قال لي: عندما علمت بأنَّ الحكومة أرسلت ساراي إلى هنا، ظننت بأنها كانت تقترف خطأ فادحاً. لأنني أعرف هذه البلاد، وأعرف كم هي مليئة بالمفاجآت وبالأفخاخ، هذه البلاد، حيث العنصر الديني المسيحي، الذي أعطاه غورو وويغان كمية كبيرة من الضمانات هذا العنصر كان قويّاً وناشطاً ويغار على مكتسباته، قلت: " أن نحضر المعلم إلى سورية

يعني أنّنا نريد كسر صلبه فيها، فليس لديه ما يؤدي هنا إلى النجاح، ولديه كل ما يلزم للإخفاق، كل ما يلزم، لاسيما، ماضيه، كمفكر حرّ "

أما الجملة الثانية فكانت:

- تربيت عند اليسوعيين. من أهلي وأصدقائي، وأنا بالذات، من الخصوم السياسيين لساراي. ومع ذلكً، فحينما رأيت نوعيّة الوسائل التي كانت تستخدم لـ " نسفه "، فهمت قضية دريفوس* ! (Dreyfus)

إذاً، هذا النوع من أتباع ساراي، الذي يعبر، ليس فقط عن رأيه، بل عن رأي عدد كبير من رفاقه، يخمن بأنهم قد أخطأوا بإرسال "المعلم" إلى الشرق.

ومن الجانب الآخر أي جانب الخصوم سمعنا من يفيد - وهو ممن، لا تعميه أبداً عقلية الحزب - أن الجنرال كان ضحية مكيدة !

ونحن بقدر ما نستطيع أن نهنئ أنفسنا باكتشاف الحقيقة، التي أشار إليها رينان (Renan) بأنها تختلف عن الخطأ بفوارق بقدر رقبة الحمامة، نستطيع أن نقبل بأن هذه الحقيقة تقف في نقطة بين الجملتين اللتين استشهدت بهما لتوي.

لماذا كان تعيين ساراي، مفوضاً سامياً في سورية، خطأ كبيراً ؟ بادئ ذي بدئ، لأنه، وحسب إجماع الآراء، كان يعدّ ويغان جندياً ممتازاً، ذكياً ورزيناً، لم يقترف أخطاء إلا تلك التي كانت تؤخذ على أسلافه، ولربما لن يتجنبها خلفاؤه. ولا شيء يسوّغ استدعاءه.

---

* Dreyfus درايفوس صاحب القضية المعروفة باسمه « قضية درايفوس » . وهو ضابط فرنسي من أصل يهودي اتهم ، ومن قبل محكمة حرب ، بالخيانة ، وحُكم عليه بالإعدام .لكنه مالبث أن أعيدت محاكمته ونال البراءة وإعادة الاعتبار في الجيش بعد حملة إعلامية انقسمت فرنسا على إثرها إلى قسمين ، وكان لمقالات الروائي « إميل زولا » E. zola التي كان يكتبها في صحيفة « الفجر » بعنوان « إني أتهم » أكبر الأثر في ذلك .

لكن هناك أكثر. إن سمعة ساراي تتخطاه حيثما ذهب. إنها تحرض ضده، الأوساط التي تعرفونها في كل مكان. بمعرفتنا لبيروت، لن نستطيع أبداً تجاهل غوغائية العنصر المسيحي هناك وميله إلى العمل السياسي، وكان يجب أن يُفهم بأن مجيء الجنرال الذي أعلن لا دينيته، و ماسونيته كان سيسبب أحداثاً.

ثم، إن هذا القائد الشهير كان بعيداً جداً عن السياسي الذي يظنه فيه. فليست الديبلوماسية حقاً من نزعاته القوية ! إنه قطعة واحدة، تنقصه المرونة. خجول، قليل الموهبة في النقاش، ميال إلى العنف، وما من أحد أقل منه معرفة بطريق العودة عن الخطأ !

في النهاية، وحيثما مرّ، كان حدثاً لا ينكر، «كانت له قصص » وعندما عُلِمَ لدى المسيحيين في لبنان، وخاصة لدى الكهنوتيين، استدعاء ويغان وعلموا باسم خلفه، عدوا تسمية هذا الأخير تحدياً وكارثة.

بعض المحتجين كانوا مخلصين. فالسمعة التي أُثيرَت عن ساراي من خصومه الفرنسيين كانت قد وصلت إليهم. وكانوا قد قرروا - وعن حسن نية- ألا يتعاونوا معه. هذا الذي كانوا يرون فيه العدو اللدود لمعتقداتهم.

لكن الآخرين، الذين لا يشكل الصليب بالنسبة إليهم رمزاً عقائدياً فقط، بل سلاحاً سياسياً وحربياً، هؤلاء الذين لكثرة ما قاموا به من وساطات ومناورات، أصبحوا يتكلمون كسادة مع الجنرال ساراي، فهم يوظفون رجالاً من أصدقائهم في مرافق الإدارة كافة، ولقد أصبحوا عدوانيين، غير متساهلين، متطلبين، فارضين، باستمرار، امتيازاتهم باسم التقاليد المقدسة، لقد لاحظوا، وبهلع وغضب نهاية مُلكِهِم.

قاموا جميعاً، لمحاربة ذلك الذي كان سيدّعي إخضاعهم للقانون المشترك - يعني اضطهادهم ! - الفاجعة قد حلّت، صاح الأب ريمي (Remy)، الراهب الكابوشي، وهو يرتمي بين ذراعي أحد موظفي السراي الصغير. حينئذ، حتى ولو كانت فرنسة ستتأذى، فهو كان يحضّر لقتال المتعصب، المناهض للكهنوت، الماسوني الفرنسي المُقَلِّد ساراي. وراحوا يحضّرون وسائل الدفاع لاستقباله.

بعد ذلك، دخلت الميدان، وعلى الفور، صحيفة ما تخص الآباء اليسوعيين. هل صحيح، كما أُكِّدَ لي، أنهم تلقوا مبلغاً كبيراً من منظمة يرأسها الجنرال دو كاستيلنو للقيام بالعمل الجميل بهدف الحط من قيمة عسكري فرنسي في عيون الشعب الذي كان سيديره ؟ لم أتمكن من إثبات الأمر، لكن الهجمات والتأويلات، تضاعفت بعنف هائل، غير متراجعة أمام أية وسيلة !

ورقة أخرى، مارونية هذه المرة، يمكن قراءتها وهي ترنُّ كأمر: "يجب أن ترتكز الوصاية (الفرنسية) على الطائفة المارونية "، لقد شاركت، هي الأخرى، في الهجوم المسعور.

لقد نودي بالمتطوعين. الذين توافدوا. موظفون من المفوضية السامية ضباط البرّ والجو انتشروا في كل مكان من المدينة تقريباً ليبثّوا فيها افتراءات بالنسبة لحياة القائد الخاصة، ويعزوا إليه أعمالاً لم يقترفها أبداً، ويسردوا قصصاً سالونيكية غنية بالحوادث الفاضحة.

آه ! مغامرة الأميرة الروسية ! آه ! قصص الممرضات ! آه ! عربدات القنصلية البلغارية ! كانت بيروت تتلمظ بها بأكملها.

و.....شوهد رئيس مكتب وهو يحرق الصحيفة التي كانت تنشر

خبر قرب وصول المفوض السامي علناً، وكان ممن حضر هذا المشهد ملازم تابع لشعبة الاستخبارات وذلك في ممرات السراي الكبيرة، حيث كانت مكاتب الديوان العرفي، كان الملازم يضع على جبهته وعلى شكل مثلث، ثلاثة معاجين لختم الرسائل (تفهمون ما هو ملمح إليه) كان يتجول وهو يقلد طقساً من الطقوس الماسونية.

هل أذكر اسم هذا الضابط ؟ لماذا ؟

في هذا الجو، ينزل الجنرال إلى البر، برفقة السيدة ساراي وابنيه. لقد وضع رجله على شط بيروت، كان قد هُزِمَ قبل أن ينزل.

* * *

كان يعرف نفسه بأنه ليس مرغوباً بما يكفي، وكان يتوقع، الهجوم الذي سوف يكون هدفاً له، أكان، على الأقل، بارعاً ؟ هل اتخذ موقفاً يمكّنه من الحفاظ على تعاطف أصدقائه السياسيين، أو يمكنه من جذب تعاطف المحايدين، أو من تحطيم بعض الأحكام المسبقة ؟

أبداً. كان كاسراً، مستفزاً، وهو على قلة نباهته، يدعي الإعلان عن نفسه بأنه مرهف العقل !

في الساعة التي تلت مجيئه، قُدِّمَ له جميع ضباط حامية بيروت، في السراي الكبيرة، فلم يصافح أحداً وبدأ الكلام بهذه اللهجة اللطيفة التي يتميّز بها:

إن عددكم كبير جداً. سأقوم بضغط هذا العدد بشكل فعّال. وسأبدأ هذا الضغط بأمر السيد نولان بركوب أول سفينة مغادرة إلى فرنسة. (في هذه الأثناء، كانت مدام نولان تزين بالورود مقرّ قصر الصنوبر حيث كان سيقيم ساراي).

" الآن، أريد أن أغرس فيكم بعض المبادئ. تستطيعون أن تتكلموا عني بالسوء، لكن شرط أن لا يصل هذا إلى مسمعي. وإذا كان لديكم مطلبٌ تقدمونه، فسأستمع إليه. وإذا قلت « لا » فسأسمح لكم بإعادة الكرّة. وإذا قلت مرة ثانية " لا " فيجب ألا أعود لرؤيتكم!... أنتم هنا لخدمة الجمهورية... تفرقوا ! "

تفرق الضباط، لكن اللهجة التي تكلم بها القائد الجديد سببت لهم بعض الاستغراب.

بعد بضعة أيام كان ساراي قد استُقبل من قبل "الاتحاد الفرنسي". وكان له كلمة قارصة ـ حلوة. مع كلٍ منهم. فقال لطبيب رئيسي للجيش، مدير مستشفى مهم جداً:

إنني أعرفك!.. ممارس جيد، وطبع سيء.

وصرح بادئاً بالكلام للرد على كلمة الرئيس:

بالتأكيد، يوجد في هذه القاعة من يسيء القول عني. لهؤلاء، أستطيع أن أجزم بأنني أهزأ من تقديراتهم.

ترى هل كان الفرنسيون، الذين كان ممثل الجمهورية في سورية قد وجه إليهم هذه الكلمات كهدية مفرحة، مخطئين بالافتراض «بأنهم كانوا قد دُعُوا ليوبَّخوا ». في حفل استقبال آخر في مقرّ حلب. ينتصب الجنرال واقفاً في صحن السلم الكبير مشيراً إلى المدعوين، وبالصوت نفسه الذي كان يستخدمه ليأمر بالهجوم، يسأل المحيطين به :

هل يوجد هنا وبين كل هؤلاء.... أناس مهمون ؟

ثم راح يستعرض عرى الألبسة. مصوباً النظر إلى أحد الإخوة من العقيدة المسيحية، يلبس الوشاح الأخضر والأصفر، ويسأله :

- من أين حصلت على هذا ؟ كنت أجهل أنّ رجال الدين لهم الحق بالوسام العسكري.

- سيدي الجنرال، حصلت على هذا الوسام ليس بصفتي رجل دين، وإنما حصلت عليه كرقيب عسكري عندما كنت في أورفة عام ١٩١٩.

ثم قال لفارس في جوقة الشرف :

- وأنت، هل حصلت على هذا الوسام بصفة عسكرية ؟

- بل بصفة مدنية، سيدي الجنرال

- آه ! ماذا كنت تعمل في الحياة المدنية ؟

- قائم مقام في المناطق المحررة، أظن أنني أديتُ بعض الخدمات.

- هذا ممكن، على كل حال !.. لكنك تبدو لي فتياً جداً !...

في ذاك المساء، كان الفرنسيون الذين أتوا لتحية المفوض السامي، والذين تأثروا بهذه الأحاديث، قد عادوا أدراجهم.

في اليوم التالي، كان ساراي في الاسكندرونة، فعرض عليه رئيس غرفة التجارة زيارة المرفأ.

- لدينا بعض الالتماسات نتمنى أن تستمعوا إليها، قال له.

وأوقفه الجنرال على الفور :

- لا أريد أن تزعجوني بقصصكم. أنتم تجار ... والتجار... هه...، لقد قدمت إلى سورية للقضاء عليهم.

أترك للتفكير ما أحدثه مفعول هذه النكات، هذه الكلمات اللطيفة المتجددة تلك التي للأب أوبو (Ubu) وكيف استغلها خصوم ساراي ضده.

* * *

مع ذلك، وبأمر من قائد فرقة خفي، عُلِّقَتْ هذه العداوات.

كانوا يريدون امتحان ساراي، معرفة هل كان باستطاعته أن يتصرف حقيقة كمفكر حرّ في بلد كان فيها ويغان* نفسه، الذي لا يمكن اتهامه بأنه متدين فاتر. صاح يوماً، وهو يتكلم عن اليسوعيين: «إنني تعب من طغيانهم».

لقد شرَّفوه بتقديم الطقوس الدينية، لكنه رفضها. وكان هذا من حقه.ودعوه إلى احتفالات في المدارس الدينية. لكنه تجنَّبها. وهذا أيضاً من حقّه.

وكانوا قد انتظروه هنا. وقد أصبح واضحاً أنَّ الجنرال الأحمر لم يتخلَّ عن مبادئه. لقد انتهت الهدنة.

لقد أصدرت صحف اليسوعيين والموارنة مقالات وأنباء ذات نية سيئة واضحة. وأرسلوا رسائل، وعرائض، وبرقيات إلى رئيس المجلس، ورئيس الجمهورية لاستدعاء المفوض السامي.

وعقدت اجتماعات سرية ليلاً بين موظفين وضباط. كان كل منهم يأتي بالمعلومات وبالأوراق الصغيرة التي استطاع الحصول عليها، وهو في وظيفته، إلى هذه الاجتماعات، وكانت هذه المعلومات تحرر بالاشتراك مع مقالات مخصصة لإرسالها إلى الصحف الباريسية المعادية للكهنوت.

كانت الأمنية معلنة بوضوح: أن يخفق ساراي. هذا التمني الذي

---

* كان الجنرال ويغان كاثوليكياً متعصباً .

كان يعبر عن قدر كبير من الوطنية، لم يكن مصوغاً جزافاً: فبعد بضعة أشهر فقط انفجرت ثورة الدروز.

* * *

ما لم يقل، ويكتب، عن ثورة الدروز

لقد استغل أعداء ساراي من الفرنسيين، وبالسرعة المعروفة، جميع المناسبات لمحاربته، حتى بالتحامل على الحقيقة، كانوا يريدون أن ينسبوا إليه المسؤولية الكاملة عن حالة خطيرة ومعقدة للغاية لأحداث كانت ستحصل حتى لو لم يكن قد أتى إلى سورية أبداً، لأنها كانت مهيأة منذ أمد بعيد. ليس من قِبَل الدروز أنفسهم، بل من قِبَل أعداء الوصاية الذين استعملوا سلطان باشا الأطرش ورجاله*.

فلم يكن للتمرد تلك الصفة الوطنية التي نسبها إليه مؤلفو المناظرات الكلامية التي لا يعرف أبداً كم أضرت بنا وخفضت من نفوذنا في عيون الشعب السوري.

فهي ليست سوى حلقة واحدة من الصراع الكبير المباشر ضدنا والذي تكلمت عنه مطولاً.

عندما قاربنا بين بعض المعلومات، لإقامة تزامن كامل بين أحداث كهذه، (مهاجمة مراكزنا على الحدود الحورانية، توغل عصابات في بساتين دمشق، اضطرابات في مناطق حمص، وحماة، وتخريب خطوط السكة الحديدية)، لم نكن نشك، في الواقع، أن هذه الأحداث تدخل

---

* علينا أن ننتبه إلى أن هذا الكلام هو حديث فرنسي غير متفهم لروح المقاومة الوطنية السورية ضد المحتل حيث سيتكرر الحديث عنها بصفات متعددة تشير دلالاتها إلى حيوية الشعب السوري في رفض الاحتلال .

ضمن مخطط متكامل موضوع بتأن عُهِدَ بتنفيذه إلى جميع المتعاونين الذين كان من الممكن توكيلهم بهذا العمل.

ولما لوحظ بأن جماعة حوران لا يحاربوننا إلا بفضل السلاح الآتي من شرقي الأردن ومن فلسطين، صار مفهوماً أن حليفتنا، التي كانت تعدّ الدروز أنصاراً لها، لم تعد تفكر بحرمانهم من وسائل قتل جنودنا[٤].

---

٤ إنهم بالطبع، صانعون أوربيون : إنكليز، وألمان، وربما آخرون أيضاً، أولئك الذين يؤمّنون السلاح والذخائر لسلطان باشا الأطرش. إنها تنطلق من مرافئ غربيّة، هامبورغ خصوصاً، فتذهب في مراكب صغيرة أولاً إلى الشواطئ التي يعرفون بأنها غير مُراقبة : في طرابلس الغرب، قرب الحدود المصريّة، وفي الخليج العربي أيضاً، و . . . . تُفَرَّق دون عناء، ثم تُرسِل هذه الأسلحة بالتالي على ظهور الجِمَال عبر الصحراء حتّى شرقي الأردن. حيث تُبَاع لمهربين، يسلمونها بدورهم إلى الدروز.
والجميع يجد مصلحته في هذه التجارة الشريفة التي بات من المؤكّد أنها لا تُمارس دون تواطؤ ما.

كاريبيه في الجبل

ما عدا العسكريين، كم من الفرنسيين ذهب إلى السويداء- السوداء؟

كم منهم كان قد سمع عن الدروز قبل الهزيمة التي لحقت بالجنرال ميشو؟

فوق كتلة صخرية مصطخبة بركانية منيعة تحدها، الصحراء السورية، شرقاً، وحدود شرق الأردن غرباً يعيش شعب بدائي من الرعاة والفلاحين انفصلوا عن الإسلام، في القرن الثاني عشر الميلادي وأصبحوا أتباعاً لمذهب خاص غريب أساسه التقمص، ويُزعم بأن لا مسيحي ولا مسلم ولايهودي قد وفق إلى اكتشاف أركانه.

لم يستسلموا أبداً لنير الأتراك، الذين اضطروا ومن أجل إخضاعهم، إلى تدمير البلاد، وهدم القرى، وإبادة السكان، وشنق الوجهاء بالجملة [٥] ومع ذلك كان التمرّد يتجدد.

وفي الحقيقة، لا يعترف الدروز إلا بسلطة رؤسائهم الروحانيين والعائلات الإقطاعية. هذه العائلات التي تتمزق فيما بينها، وتبقى حوران، دائماً، مسرحاً لصراعاتها.

---

٥ في عام ١٩١٠، طلب الدروز الأمان، بعد أن كان الجيش التركي المرسل لإخضاعهم (١٠ فرق من المشاة، و٥ بطّاريات منها ٤ جبليّة، ٣ سرايا نظاميّة وعدد من المناصرين) قد أحرق أكثر من / ١٥٠ / قرية، وصادر / ٣٠ ألف / قطعة سلاح وقتل / ٦ آلاف / مقاتل، وشنق / ٣٠ / قائداً، وحوّل / ٨٠ / آخرين إلى المحاكم العرفيّة.

وعندما تقاسمت فرنسة وانكلترة المناطق المنسلخة عن الإمبراطورية العثمانية، كانت حوران من نصيبنا. وفي الحقيقة، وبعد مراجعة الخريطة يلاحظ أنه، من أجل أن تترك لنا هذه القطعة، أعطى جيراننا الحدود التي كانت تفصل بين حصتنا وحصتهم شكل الجيب، جيب تركوا في أسفله لنا الدروز، الذين، كانوا حماتهم منذ ١٨٦٠، ولا يسعنا إلا أن نعترف لهم بالجميل لهذا الكرم!

ومنذ أن وُضِعَ الدروز تحت حمايتنا خلقوا لنا الصعوبات، كما كانوا قد خلقوا صعوبات مثلها للأتراك، وكما سوف يخلقون من صعوبات لكافة السلطات التي سوف يترتب عليهم الانتماء إليها. إنهم مجدون ومزودون بالذهب من قِبَل خصومنا في الخارج، مقتنعون بأنهم سيكونون أكثر سعادة وغنى وقوة فيما لو كان الانتداب ممارساً من قبل انكلترة، لقد نظم رؤساء الإقطاع قلاقل اقتضت من قواتنا أن تقوم، ولعدة مرات، بإخضاع هؤلاء الجبليين الشرسين*.

لقد كُتِبَ أنه قبل ساراي، كان السكون والهدوء مخيمين على الدروز. هذه خرافة ! فمنذ أن كنا في سورية لم تكف السلطات الفرنسية عن حملاتها ضد الجبل كما تثبت مراسيم ١٣ نيسان و٢٧ تشرين الأول من عام ١٩٢٣ التي منحت الوسام السوري للعسكريين الذين أسهموا في عملياتها المختلفة.

وقد يكون خارج الموضوع ومملاً إعطاء تفاصيل لهذه العقوبات القامعة. وعلى أية حال، فإنه بفضل هذه العقوبات توصلنا إلى إعادة

---

* وعلينا أن لا ننسى أن الكاتب فرنسي وأنه يرى الثورة السورية ليست فعلاً وطنياً ، بل فعلٌ معادٍ لوجوده وعليه أن يجد المبرر للإساءة لهذه الثورة .

النظام في حوران. والحفاظ عليه، ولإدارة هذا البلد الصعب جداً، كان يلزمنا رجل نشيط، فعّال وموهوب ذو صفات مختلفة لينجح في تهدئة اضطرابات الإقطاعيين. لقد أُرسَلَ ويغان نقيباً عسكرياً وأعطاه القب حاكم هو كاربييه. (carbillet).

آه! يا لهذه الشخصية المتفردة! آه! يا لهذه الشخصية المدهشة!

وكاربييه هذا رغم تكوينه الذي كان يمكن أن يقيه المغامرات كافة، وبصرف النظر عن ازدرائه العناية بهندامه، فلقد كان لكاربييه مغامرات في مراكش.

أية مغامرات؟ يكفي، وللتكهن بطبيعتها، دون شك، أن يكتب بأنه من الدقة تحديدها، وأنَّ بطلها كان قد استعمل واستغل في هذه الظروف السلطة التي كانت تمنحه إياها رتبة الشرائط الثلاث الممنوحة لجنود الفرقة الأجنبية في الجيش.

لكن، وكما تراه، كان كاربييه رجلاً رائعاً. أقولها دون سخرية. فقد وهب نفسه بحماس، وبذكاء، وبكرم للمهمة التي كانت موكلة إليه والتي أتمها بتجرد كامل[٦].

لقد خطَّ كاربييه طرقاً، وفتح عيادات طبية، وغرس أشجاراً، وبنى مجرى ماء بطول ثمانية عشر كيلو متراً لجلب ماء الجبل إلى السويداء، ونظَّم المالية، وملأ صناديق الدولة، وقام بتنقيبات، واكتشف ثروات، وأسَّس عدة متاحف حجرية، وأقام مدارس. والفرنسي الذي يجتاز الجبل اليوم، والذي يسمع صغار الدروز يكلمونه باللغة الفرنسية، مدين بهذه المفاجأة، وبهذا التأثر لكاربييه!

---

٦ لم يقبل أبداً، رغم أنه كان فقيراً، أن يقبض التعويضات العائدة لمهامه.

إنه ذو قدرة مدهشة على العمل، لا يتعب، يهب كامل ذاته لهذا البلد الذي حينما ابتعد عنه، راح يكتب عنه أجمل الرسائل، والأكثر تأثيراً : «تركت قلبي في الجبل، أحبه كوطني الثاني» لقد خطَّ كاربييه في حوران صفحة مضيئة، على فرنسة أن تشكره عليها.

ألم يشتمل الجوهري في رسالته على هدم غطرسة وأطماع السادة الإقطاعيين الذين كان كل واحد منهم يطالب بامتيازات الأمراء الذين كانوا يحكمون الجبل سالفاً؟

لقد حمل كاربييه على سادة الجبل. أنا فظ، قال عن نفسه.

وكان فظاً في الواقع (ولربما كان هذا ضرورياً). فلم يكترث للامتيازات القديمة التي كانت تدّعيها الطبقة الإقطاعية. كان يريد لهذه الطبقة أن تخضع للقانون الذي وضعه، وللأنظمة التي خطَّها بقلمه العسكري، والتي كان يرغب أن يطبقها الجميع دون نقاش ولا تذمر كما يفرض النظام على الخدمات الداخلية.

باشر بإقامة النظام الديمقراطي في الجبل وكان ذلك خطأ، كانت الرغبة أن يتقدم المجتمع الدرزي قرناً وأكثر خلال بضعة شهور. الإقطاعيون الذين أخطأ تجاههم بعدم تقديمه مظاهر الاحترام لهم، والتي يتحسس لها الشرقي، شعروا بأنهم كانوا قد أهينوا بمنحهم نموذج قائد - قاس إلى درجة - هو ضابط ثانوي، وكانوا مستعدين، للمساهمة بعمليات اعتداء على السلطة المنتدبة.

وهؤلاء لم يتأخروا عن إرسال موفدين، ولم يصعب عليهم إقناع الساخطين بالدخول في صف الثائرين.

كانوا في حاجة إلى مناسبة. وقد حصلت هذه المناسبة، وكان من حق

كاربييه أن يحصل على إجازة، وحصل عليها، وسافر إلى فرنسة وحل محله النقيب رينو (Renaud).

المصادفة التي جاءت برينو خليفة لكاربييه راحت تسرّع الأحداث. والمصادفة كانت تقوم بإحدى هذه المقاربات التي لا تخطر على قلب مؤلف درامي أو روائي. فهذا الروائي أو المؤلف الدرامي ما كان ليجرؤ على أن يسمح لنفسه بهذا القدر من المصادفات خشية أن يُصرخ بوجهه بأن هذا غير معقول. فمن كان رينو إذاً؟

كان ضابطاً سابقاً في مراكش، مكلفاً ـــ فيما مضى بالتحقيق في قضايا كان كاربييه بطلها. ولم يكن لكاربييه عدو ألدَّ من الرجل الذي كان سيشغل منصبه.

قام رينو هذا فور استقراره، بخلاف ما كان قد قام به كاربييه. فقام بهدم ما صنعه كاربييه، ودشَّن سياسة جديدة، واستمع بمجاملة إلى ما كان ينقل إليه عن السيد المخيف كاربييه عندما كان في الجبل والذي هوجم بسبب إبحاره إلى فرنسة. ولعل رينو أيضاً شجع الإقطاعيين على كتابة سجل من الاحتجاجات، والشكاوى ضد كاربييه والذهاب إلى ساراي لتقديمها له...

و....ذهب الإقطاعيون إلى بيروت.

وبدأت الستارة تُرفع تواً عن المأساة. فساراي لم يلتق أبداً الوفود، وكان هذا هو المسوّغ الذي اعتمده أعداؤنا من أجل بدء هجومهم.

بوح الأمير

قيل لي: هناك رجل في سورية، يستطيع إن أراد، أن يقدم إليك أشياء كبيرة الأهمية عن ثورة الدروز، إنه من آل الأطرش، ابن العم الحقيقي لسلطان، إنه الأمير سعيد فارس بك الأطرش، صديق فرنسة الذي خدمها دائماً بإخلاص، حتى اضطر إلى مغادرة ديبين، مسقط رأسه، في بداية الثورة التي لم يرض أبداً أن يشارك فيها، وهو يعيش مع ابنه في بصرى - إسكي شام، اذهب لرؤيته.

« إنه رجل عاقل ومتزن، كان موضعاً لألف من الالتماسات من جماعة الملك فيصل، والتي رفضها، وكان موضعاً لألف من الإرباكات التي تحمَّلها برصانة، فلا السجن ولا سَلْب أمواله، ولا محاولات القتل الموجهة ضده قد نالت من أمانته لقضيتنا ».

اذهب لرؤيته.

« من بيروت إلى بصرى، مروراً بدمشق، لن تأخذ أكثر من أربعة أو خمسة أيام»، كان التقدير متفائلاً، وقد اضطررت إلى تخصيص أسبوع للسفر، ولا أهمية للوقت، على أية حال، طالما أنا في حوران، وقريباً إلى هذا الحد من السويداء، السويداء التي ألمح، وبالعين المجردة، بساتينها، ومنازلها، وقلعتها.

كان الأمير قد أُخبر بوصولي من القيادة العسكرية في دمشق، فأرسل أصدقاءه، وجهاء بصرى، لإحضاري من المحطة.

- مرحباً بالزائر الفرنسي بقدر المطر الذي هطل على بلدنا في هذه الأيام الأخيرة!

بهذا الكلام الإنجيلي حُييت بامتياز.

إنني أفكر بكمية الماء الهاطلة منذ مغادرتي بيروت، أفكر بالبركة الموحلة الكبيرة التي كان عليَّ اجتيازها للمجيء، إلى هنا، وليتبين لي أن التهنئة لم تكن رقيقة!

هؤلاء الرجال، الذين امتطوا جياداً رائعة بسروج مطرزة بالصوف والحرير والفضة والذهب، كانت لحاهم وشعورهم الطويلة المتموجة بالحنّاء تتطاير على الأكتاف في سوادها المحمر بالحناء، وأما الأيدي فكانت تظهر تحت قفاز من الوشم، وكانت الجفون مزرقّة بالكحل الكثيف، وكانت الوجنات متوردة. هؤلاء الرجال، قاموا، وعلى شرفي، بمهرجان حماسيّ للفروسية، وذلك في الجهة الأخرى من الطريق.

كانوا يتهيجون بإطلاقهم أصواتاً صاخبة، ثم يعودون، نحوي، طراداً، ويواكبونني خطوة خطوة حتى قريتهم الواقعة على بعد بضع مئات من الأمتار من المحطة.

كيف لي أن أصف تنوع الشعور وشدته اللذين أغرقاني في أثناء هذا المهرجان؟

في كل خطوة كنت أتقاطع مع رجال، وجه كل منهم كوجه الحواريين والرسل، رأيت ولعشرين مرة، يسوع وهو ينتصب أمامي تحت الكوفية البدوية، ولعشرين مرة، رأيت العذراء، لابسة ثوباً طويلاً من قماش أزرق تسير قرب حمَّال صغير محمَّل بالجرار.

سرت متفائلاً من تأثر عصبي إلى تأثر، تحت المطر القاسي، وعبر أزقة المدينة الفقيرة المبنية بالحجارة البركانية السوداء، على حدود الصحراء، مضيتُ معجباً بالبوابات الفخمة، وبالأعمدة وتيجانها الكورنتية* الشكل.

كانت بصرى مسرحاً قديماً، وحمامات، وآثار مسجد شيّده عمر، وآثار أخرى للكنيسة التي التقى فيها محمد الراهب المسيحي بحيرى الذي بشره بالحياة التصوفية التي كان موعوداً بها.

حضارة لاتينية! مسيحية! إسلامية يا لها من ذكريات! لكن موضوعنا اليوم ليس التنقيب عن الآثار، أو عن التاريخ الديني، طالما أن المدفع يرعد، وطالما تمكنت من رؤية جنودنا، من فرنسة وأفريقية** على طول السكة الحديدية المحيطة بالجبل، كانوا على استعداد للعمل، منحنين تحت الصومعة، أو الخيمة أو الملاجئ المبنية بأيديهم الماهرة بالحجارة البركانية والملتقطة من السهول، والمعجونة بالتراب المبلل، حسب طريقة البلد.

ماذا أتيت لأصنع هنا؟

جزء صغير من حقيقة ، لدى رجل، صادق لدرجة كافية بأن استطيع أن أمنحه معها الثقة. وقد أكد لي بأنه عارف بالأسباب التي حملت إخوانه على محاربتنا.

قيل لي:

---

* نسبة إلى مدينة (carinthe) أو (korinthos) واحدة من أغنى المدن في اليونان ، منافسة لأثينة وإسبارطة ، مشهورة ببناء أعمدتها .

** يعني الجزائريين والمغاربة والسنغال من الفرقة الأجنبية في الجيش الفرنسي

الأمير ينتظرك في المضافة[٧]

وصلت، بعد قليل، أمام منزل منخفض، مشيد من حجارة بركانية، يظهر على بابه رجل في الخمسينيات، بشاربين أسودين كثيفين، يحمل على ثوبه، صليب وسام جوقة الشرف، ويرافقه شاب كان قد ارتدى الزي الأوروبي، إكراماً لي دون شك: طقم مزخرف، حذاء لماع، محرمة حريرية! تبادلنا تحية مع الأمير. وتعانقت أيدينا.

له وجه ذكي ومفكر، نظراته ثابتة، وحركته متزنة، وثيابه رزينة.

يقفز الفرسان الذين رافقوني أرضاً. وندخل إلى قاعة كبيرة طويلة مقنطرة، ومن دون نوافذ.

ومع أن النهار كان مشرقاً في الخارج، إلا أن قناديل الكاز المتعددة كانت مضيئة. يا لها من زينة ! تصوروا قنطرة من الحجر المسوَّد بفعل السنين، مسدودة في نهايتها، خالية من الأثاث وأرض مغطاة بالسجاد في الوسط، وحفرة مليئة بالجمر المشتعل، بمساحة متر مكعب تقريباً، ومحاطة وبترتيب بأدوات من النحاس الأصفر لغلي الماء، أجران من الخشب (مهابيج)، محامص البن، جميع الأدوات اللازمة لتحضير القهوة.

كان الهواء الثلجي والمطر قد جعلاني أرتعد. أجلسني الأمير قرب الموقد، وجلس القرفصاء بقربي، يقدم لي القهوة بيديه. ورفاقي يجلسون على الفرش والمخدات المرتبة على طول جوانب القاعة ومنذ فترة قصيرة.

بعد قليل، لحق بهم وجهاء آخرون، يرتدون عباءات سوداء، وبيضاء، مختلطة الألوان، يعتمرون أغطية مثبتة على الرأس بشريط محشو على

---

٧ منزل مشترك . والمضافة هي قاعة كبيرة تلحق بالمنزل وتخصص لاستقبال الضيوف .

شكل كعكة (عقال). إنهم المسنّون الذين لم يتمكنوا من اللحاق بالفرسان حتى المحطة. ولديهم جميعاً وجوه المسنين الجميلة، واللحى من الفضة كلحى البوز*. أسرَّ المترجم لي بسن العميد (خمسة وثمانون عاماً) الذي، اقترب من نهاية عمره، ومازال يحتفظ بأناقة عينيه وتجميلهما.

ويدخل الأولاد بخجل وخوف، واحداً واحداً إلى المضافة، والأولاد الذين يثير فضولهم وجود الزائر الفرنسي، لم يلبثوا أن أصبحوا أكثر من خمسين، سوف يمضون جميعاً إلى الجلوس القرفصاء على السجاجيد، بين أرجل الرجال.

ماذا "إذاً" ! لقد دُعي مجلس كهذا لتكريمي. وأقل ما أستطيع القيام به هو هذا التقيّد بتقاليد ضيوفي. أنا أعلم بأن عدة خطابات ستُلقى، وسيتناول الكلام كلٌ من الحاضرين ليقول كيف يفكر بالأحداث الحاضرة ومصدرها. إنه المشرق !إنني مستعد. وبدأت الخطب.

بطبيعة الحال، أتلقى تصريحات حارّة بالحب موجهة لوطني، وأعلم أن جميع هؤلاء الرجال، جميع هؤلاء المسنين، جميع هؤلاء الأطفال ينتظرون أيضاً دخول قواتنا إلى الجبل. إنهم ينتظرونه " كالأرض الجافة تنتظر ماء السماء ".

ما الذي ينبغي أن أحتفظ به من هذا الاعتراف الجماعي الغريب؟ لا شيء أو تقريباً لا شيء. ليس الأمر كما قاله لي الأمير، وهو يستقبلني مساء في منزله.

- قيل وكُتبَ إنّ النقيب كاربييه هو سبب الثورة. هذه أسطورة، إنه كإنسان، لا يخلو، دون شك من العيوب، وقد صنع الكثير من أجل بلدي الذي يحبه. إنني أعدّه إدارياً ممتازاً ومنعماً على هذا الجبل.

---

* Booz : شخصيات من الكتاب المقدس .

- سألت:

كيف تفسرون الشكاوى المرفوعة ضد الحاكم السابق من قبل الرؤساء الدروز، وبصورة خاصة من قبل أفراد عائلتك؟

- كان أقراني يلومون كاربييه، الذي كانت إدارته الديمقراطية، قد خففت من نفوذهم الشخصي وجعلت المساواة في المنطقة سائدة.

" ما دام في مهمته، فقد كانوا يخضعون لقانونه - لربما كان قاسياً إلى حدٍّ ما، إن صحّ القول. لكن ما إن سافر في إجازته، حتى استغلوا هذه المناسبة ليرموه بالاتهامات التي كانت مفتراة في أغلبها. إنه واجب علي أن أُصرِّح بما أعرفه للصحافة الفرنسية وبصوت عال.

فكّر الأمير لفترة طويلة وتابع :

- نعم... لقد تذرع الثائرون بإدارة كاربييه، وبأن الجنرال ساراي رفض استقبالهم وذلك للدخول في كفاح ضد السلطة الانتدابية.

" قبل تمرد سلطان بشهرين، أُشعرت من قبل المخبرين التابعين لي في شرقي الأردن، بأن حركة عامة كانت قد هيئت ضد فرنسة على كامل الأراضي الموضوعة تحت وصايتها.

" وقد بلّغت هذا، فوراً، إلى السلطات العسكرية في دمشق، التي لم تعمل أي حساب لذلك[٨]. كانت معلوماتي جدّية، لأنه، في تشرين الأول، وبعد فترة من الزمن، كانت أحداث الجبل قد بدأت، في حماة، المدينة التي تبعد عن السويداء حوالي ٥٠٠ كم، والتي كانت تحت إدارة

---

٨ كيف لا نستغرب أن تكون دوائر استخباراتنا قد أهملت المعلومات التي أدلى بها الأمير فارس بك الأطرش ؟ وكيف لا نشير بأنه ليس الخطأ الوحيد الخطير الذي يمكن أن يلاموا عليه ؟

ضابط مميز هو المقدم كوستيليير (Coustillieres)، الذي لم يوجَّه ضده أي انتقاد، وثار فيها المسلمون المتعصبون، وأخيراً دخلت دمشق في النهاية عصابات السلب.

" نحن لا نتحدث عن مصادفة. فهذه الحرائق الثلاث لم تندلع بشكل عفوي.

" لقد أشعلها: دمشقيون، وشرق أردنيين، وسوريو مصر، ومشجَّعون من قبل عملاء السلطة الأجنبية الكبيرة التي تعرفونها، في الكفاح الخفي الذي يساندونه ضد بلدكم.

في العاشر من كانون الأول عام ١٩٢٤ ، أي أكثر من عام قبل وصول ساراي ، ألم يتلقوا ، من قبل أحد عملائهم ، المقرب من مصطفى الخليل ، رئيس جماعات شرق الأردن ، ألم يتلقوا خبراً سرياً موجوداً في مستنداتهم ، وعدوّه ، ومن دون شك ، غير ذي قيمة ، بدليل أنهم لم يحولوه أبداً إلى القيادة .

صرَّح هذا العميل بأنني كنت قد حضرت جميع الاجتماعات التي عقدت عند مصطفى في حزيران وتموز .وكان تحت تصرفه عدة فرق منها واحدة تحت أمرته مباشرة .

" كانت مهمة هذه الفرق إحداث الهياج في سورية .وكان قد قرر أنه فور بدئها بالعمل ، يثور الدروز . هاجم مصطفى الفرنسيين باتجاه درعا .ثم قام بعدة عمليات بين ١ و ١٠ آب ، ثم انتظر التعزيزات الدرزية الموعود بها والتي كان سيقودها سلطان باشا الأطرش . لكنهم لم يأتوا .

" كانت هذه الحركة كلها منظمة من قبل رضا باشا الركابي " .

من هو رضا باشا الركابي ؟ هو وزير سابق لفيصل ، وحالياً رئيس وزارة لعبد الله ، ملك شرق الأردن . عدو لدود لفرنسة ، وعلى اتصال وثيق بلجنة القاهرة السورية – الفلسطينية ، ويمتلك أسلحة ورؤوس أموال مهمة ، وكان له ضلع في الحركات الموجهة ضدنا التي كان يقوم بها عرب دمشق المتعصبون والدروز .

ثورة الدروز*

رفض ساراي استقبال الوفود الدرزية. حتى إنه أوقف عدداً منهم لإرسالهم للإقامة الجبرية في تدمر[٩].

---

* ادعاءات فرنسية مألوفة وذلك لتقطيع أواصر الشعب الواحد ، فالثورة كانت للشعب السوري بكامل فئاته وأطيافه .

٩ من كان هؤلاء الموفدون الذين ، وحسب مقطع من رسالة الأمير فؤاد أرسلان ؛ صدى باريس : " كانوا أربعين من أكبر الزعماء ، عدا سلطان باشا الأطرش الذي لم يكن يرافق الوفد . . إنهم أصدقاء فرنسة الذين يمثلون نخبة بلدهم ."
إليكم : " من هؤلاء الأربعين ممثلاً ، الذين ، لم يكونوا ، على كل حال ،سوى واحد وثلاثين ،ستة فقط كانوا عائدين إلى المجلس التمثيلي . لم يرافقهم أحد من الرؤساء الروحيين . كان يُلاحَظ في صفوفهم اثنان من قتلة الملازم الفرنسي المجتذب إلى كمين . عام ١٩٢٢ والذي قتل مع اثنين من صف الضباط من قبل سلطان باشا الأطرش ورجاله ، أي ثلاثة من أعداء فرنسة البارزين والموضوعين تحت الإقامة الجبرية من قبل المفوضين السامين السابقين ، اثنان من ممثلي الشعب لم يُعَد انتخابهم في الانتخابات المقررة من قبل ويغان ، وسارق ، وثلاثة موظفين ، أو ضبّاط مُسرَّحين .
قد نقبل لربما ، أن ساراي كان على حق عندما لم يُظهِر كثيراً من الاحترام لهذه " النخبة من الرجال ، لهؤلاء الأصدقاء الحقيقيين لفرنسة " ولإعطائه الأمر بتوقيف بعضهم وإرسالهم إلى الإقامة الجبرية في تدمر ، حينما بُلّغ بأن هؤلاء السادة كانوا قد باشروا بالتحرك .
وكان من المؤسف ، اللجوء إلى مواربة لا تخلو من قلة اللياقة للقيام بهذه العملية ، ويمكن القول كما كتب السيد كيريلليس (Kerillis) : هذا الفخ ليس له سابقة في تاريخنا الاستعماري ، وحتى في تاريخنا .
لنجمع « أرجوكم ، بعضاً من ذكرياتنا الحربية على الساحة الخارجية ، ولا نصرّ » .

سلطان باشا الأطرش، الذي تحفَّظ في المجيء إلى بيروت، فهو يوجِّه كلّ اهتمامه للتحضير من أجل التمرد، يبدأ بالعمل مع جماعته ضد الحامية الفرنسية في السويداء المحاصرة ضمن القلعة. وكان جنودنا خائري القوى، مرضى، عاجزين بفعل نار العدو، ولا يموّنون إلا بواسطة الطائرات.

ينبغي الذهاب لإنقاذهم.

ساراي يكلف ميشو بهذه المهمة. وهذا بدوره سوف يدوِّن، في حوليات حملاتنا البعيدة، صفحة سوداء كتلك التي جعلت من كارثة "لانغ - سون" ذكرى لا تنسى.

أيها الضباط الذين قرأت تقاريرهم، ورسائلهم، واستمعت إلى قصصهم.

أيها الجنود الذين تطلقون عنان غضبكم، قرفكم، حياءكم بلعنات صاخبة، عندما تتذكرون رفاقكم المشوهين، المضرجين كحيوانات المسلخ المضمخين بالبترول والمحروقين أحياء من قبل الدروز، فالرئيس الذي وُضِعتُم تحت إمرته كان يجهل مهنته، ربما لن تفهموا أبداً أنه بعد أن طرحت عليكم كثيراً من الأسئلة، أني أصغي إليكم بهذا القدر من التأثر، وأسجل كثيراً من الملاحظات تحت نظركم، وأسكت عما تعلمته منكم.

مهما كلفني الأمر، و بالرغم من بعض التحفظات، فأنا معجب بهذا الجندي الذي رأيته، وخلال مدة ثلاثة سنوات،في مقدونيا، يجابه صعوبات لا تحصى ويتجاوزها كلها، وأنا مكره على الكتابة بأن فاجعة السويداء، في النهاية، هي مسؤولية ساراي.

من كلّف الجنرال ميشو بالذهاب لتحرير أولئك الذين كانوا قد بقوا من جماعتنا أسرى منهكين من قبل العدو في قلعة السويداء القديمة؟

ساراي! لأنه، لا ينبغي عليه أن يجهل بأن مرؤوسه كان عاجزاً عن القيام بهذه المهمة، وللقول بكل وضوح، بأن لاشيء خلال مهنته السعيدة إلى هذا الحدّ، والسريعة إلى هذا الحدّ، قد هيأه لأن يجد نفسه مكلفاً بمثل هذه القيادة، ومنعَّماً بهذا الشرف.

كان ساراي يعرف ميشو، يعرف من هو ميشو. فهو يعلم بأنه في عام ١٩١٥، عندما، ذهب ساراي إلى مقدونية ليخلف الأب بابو العجوز، أخذ بصحبته، فيمن أخذ من الضباط، أحد صغار قواد فوج القنّاصة المشاة الذي كان يحبه من بين الجميع لشدة تفاهته، وانعدام شخصيته، وجعل منه تباعاً، مقدماً، ثم عقيداً، ثم لواء، ثم رئيس أركان، ثم رئيس أركان عام لجيوش الحلفاء في الشرق.

ترقية رائعة ! رائعة خصوصاً إذا ما اتضح لنا أنَّ المستفيد منها لم يغادر مكتبه مرة واحدة في سالونيك، ملتزماً دائماً بدقة ونظام تلك الإقامة في المكتب.

يعلم ساراي - وهو ليس الوحيد - أن ميشو يمتلك، بالضبط، الصفات المطلوبة، من ضابط إداري يحوز على كتفه الشارات الأربع، ويمتلك القدرة على سرعة التقلّب، وتلفيق الأمور، كشخصٍ لا مثيل له. نعم....كان ميشو يستطيع هذا.

نعم ميشو جدير بهذا كلّه، وجدير حتى بتصحيح أخطاء الإملاء لتقرير جندي دركي، لكن لا أن يقوم بحرب!

- عفواً! سيقال. إنه عندما عزل ساراي من منصبه في الشرق،

اتضح لميشو أنه لم يعد لديه لا راتب ولا أوسمة يجنيها من سالونيك، عند ذلك عمل على العودة إلى الوطن. وعندها أوكلت إليه قيادة فرقة على الجبهة في فرنسة، لم يقدها بشكل سيء إلى حد ما! بالتأكيد، لكن كان الأمر يتعلق بفرقة عسكرية من ضباط موضوعين على الاحتياط ولم يكن على رئيسها سوى تنفيذ الأوامر التي تعطى له.

على كل حال، كان ميشو، قد حافظ في فرنسة على عاداته المكتبية، على نزواته المشرقية الصغيرة. فهو وإن كان لا يستعمل كمّين مصقولين مستعارين، فإنه لم يكن يتردد في أن يضع أبداً، وبعناية كبيرة، على قبعته غطاء واقياً من الغبار، عندما كان يحضر إلى العمل. وكان مستمراً في استعمال ريشتين: واحدة للكتابة، والأخرى أعرض بشكل ملموس، كان يستعملها لخط توقيعه.

آه! ميشو، ميشو، أي نوع من المحاربين أنت، وكم كان ساراي سيء الاختيار يوم شاء أن يعطيك المناسبة لترقية جديدة، لقد سمح لك (وكنت ستمارس لأول مرة مهنتك رئيساً): أن تنطلق على طريق السويداء، حيث كان عليك أن تفقد كل شيء، عدا الحياة... أية مسؤولية تحمَّل، أمام البلاد، ذلك المتشبّث المنعم عليك!

مسؤولية تعادل مسؤولية الحكومة التي جعلت من ساراي مفوضاً سامياً في سورية.

إنني أسمع، حتى الآن، نشيد النصر الذي أُطلق في حينه من فرقة المناصرين.

كان قد عُوِّض عن غبن كبير! لقد مُنح الجنرال الجمهوري التعويض الذي يستحقه بفضل خدماته الباهرة. وقد ردّ النظام اعتباره!

إن الرجال الذين كانوا يعرفون ساراي بغير الصورة التي سمعوه فيها في الاجتماعات العامة، كانوا متأكدين بأنه ذاهب إلى إخفاق في هذا المنصب الجديد، كما في جميع المناصب التي شغلها، كان من الممكن " أن تحدث له قصص ". قد يكون وجوده في سورية مناسبة لنوع من الأحداث يقتضي معها استدعاؤه. هذه المغامرة التي رماه فيها أصدقاء متهورون قد تكون آخر مغامراته، وهي قد ترسم وبتعاسة نهاية مهنة قلقة، غنيّة بصفحات مشرقة، مظلمة ببعض الظلال، إنما، مجيدة، على العموم!

لم يتركوا ساراي ينعم باستراحة مستحقة وبسلام ؟

لِمَ لَمْ يتركوا ويغان مكانه؟

من المؤكد أن ثورة الدروز كانت ستنفجر. ومن المؤكد أن فرقة من فرقنا كانت ستحاصر في قلعة السويداء. لكن لم يكن من المؤكد ان يرسل ميشو لتحريرها!

تشكيل حملة ميشو

لِمَ ينبغي عليّ أن أصل في نهاية تحقيقي إلى الأسباب التي قادت إلى أحداث شهر آب ١٩٢٥ الأليمة نفسها، ولِمَ ينبغي عليّ أن أختم ذلك باتهام؟

بعد دراسة هذا الكم من الأوراق الرسمية، وبعد قراءة هذا الكم من التقارير والرسائل الصادرة عن ضباط شاركوا بالحملة المرسلة لإنقاذ السويداء، لماذا ينبغي عليّ أن أكتب: " إن الجنرال ميشو كان دون مستوى المهمّة الموكلة إليه، ولا يعرف ترتيبات هذه العملية، ولم يكن، في أية لحظة، قائداً ذا كفاءة لقطعته العسكريّة، بل كان جاهلاً بالشروط التي يجب على مجموعة متنقلة أن تتصرف وفقها، وأنَّه هو المسؤول عن الفوضى التي سادت بين قطعاته وعن هزيمتها أيضاً.

في ذلك الوقت الذي ظهر فيه ، لم تكن لديه أي من هذه الصفات: الرواقية* والهدوء، وكرم الرئيس التعِس، لكنه عندما نجا من الكارثة التي هلك فيها عدد كبير من ضباطه، ومن رجاله، لم يفكر إلا في أن يحمِّل الآخرين مسؤولية هزيمته.

---

* الرواقيّة : نسبة إلى " الرواق " الذي كان يجتمع فيه أتباع زينون ، وهي فلسفة كانت تقول بأن كل شيء في الطبيعة إنما يقع بالعقل الكلي ، ويقبل مفاعيل القدر طوعاً .

كان يقول عن القطعات الموضوعة تحت إمرته: لقد أعطوني عصا تالفة.

أقال، حقاً، هذه الكلمات؟ أجهل ذلك، أما الذي أعرفه فهو أنه تذمر بمرارة من الوسائل الموضوعة تحت إمرته..... كانت غير كافية لإتمام مهمته.

لماذا قَبِلَ ذلك ؟ أمن أجل إطاعة رئيسه، مع أنَّ الطّاعة مبدأ عسكري لا يمسُّ إلا أن هناك مبدأ اعترف به نابليون نفسه، مفاده : " لا أحد ملزم بالقيام بفعل ما إذا ما قَدَّرَ بأنه لا يمتلك الوسائل اللازمة لحسن إتمامه. "

على عكس ذلك، ألم يكن قبوله بالمهمة ليس إلا، من أجل أن يجد نجمة جديدة على طريق السويداء؛ ليعلقها على كتفه، كما يقال بشكل صريح في جيش المشرق بكامله، حيث يُحكى عن توتّر الأعصاب والقلق الذي كان يبديه منذ أن لمح احتمال ترقية جديدة؟

وفوق ذلك كلّه، فإنَّ الجنرال ميشو هو الذي شكَّل طابوره العسكري بنفسه. وهذا كل ما يستطاع أخذه دون خطر من القوى الفرنسية كلّها في سورية التي عُهد بها إليه.

هل تعلمون، مثلاً، ماذا بقي من سلاح المدفعية خارج منطقة العمليات؟ بقي ما يمكن كتابته اليوم،دون ضرر: سرّية مدفعية من عيار ٥٦ ملم في دير الزور، مقابل الصحراء، ونصف سرّية من عيار ٧٥ ملم في حلب !

هل أراد الجنرال ميشو مدفعية ثقيلة؟! فارتجل من أجلها وحدة مدفعية من عيار ١٠٥ ملم. لقد سأله أحد ضباط الأركان لماذا كان ينوي استعمالها، فأجاب:

- لنُدكَّ، يا سيّد!

- لنُدكَّ ماذا؟ العدو لا يمتلك مدفعية، ووسائله الدفاعية غير موجودة. إنه يهجر معظم قراه قبل المعركة، وهذه القرى مبنيّة من كتل حجرية، من بلاطات بازلتية غير قابلة للهدم عملياً، كما بيّنت التجربة.

عند الحاجة، يمكن استعمال قذائف ١٠٥ ملم لدك خزانات الماء وتدميرها، استعمالاً لم يُستخدم من قبل.

إذن، كان الجنرال ميشو يمتلك كل ما كان من الممكن إعطاؤه له.

- لكن، إذا ما عدنا إلى التهم الموجهة إلى ساراي، الذي" من أجل إبداء إعجابه بالحكومة "، كان قد أرسل تلقائياً وحدات إلى فرنسة تتحمّل الخطأ، فقد يُقال : " هل كان جيش المشرق فقيراً إلى هذه الدرجة؟ "

للرد على هذا الاعتراض، يكفي أن أورد مذكرة العمل لوزير الدفاع (رقم ١ / ٩٦٢٥) في العشرين من أيلول ١٩٢٤، القاضية بتخفيض عدد جيش المشرق إلى رقم يقترب من ٢٠,٠٠٠ رجل. وكان تنظيم القوة العددية الناتجة عن هذا التخفيض لابد أن يتم، وقد تَمَّ بالفعل بتاريخ ٢٥ كانون الأول ١٩٢٤ .

مجمل القول، كانت التخفيضات المرتقبة قد تَمَّت عند ذهاب ويغان، لكن في حزيران ١٩٢٥، وبناء على طلب الوزارة، كان ساراي قد أرسل إلى المغرب فوجاً من القناصة، استبُدل بفوج آخر، فوج رشاشات غير مدربة (فوج أوجاك)[١٠]

---

١٠ أوكل الجنرال ميشو لهذه الوحدة ، التي كان يعرف ضعفها ، الذي أنكره لاحقاً ، مهمة حراسة موكبه ؛ أي الجزء الأوسط ، أو الجزء الحيوي المهم من الحملة ، الذي كان يجب أن تتجمع حوله جميع عناصرها .

بعد أن حصل ميشو على كل ما يريد من العتاد، بما فيه هذه المدفعية الثقيلة التي لم تكن لتنفعه بشيء، أثقل حملته بما يعرقل سيرها: صناديق، ومستندات، ومحاسبة، وآلات كاتبة، إلى آخره، وثماني عشرة بغلة كانت تحمل عتاد الديوان العام!

لكَّن ميشو لم يتفقد وحداته أبداً،لأنَّ المرة الأولى التي اتصل فيها بوحداته، كانت في أول آب وفي ليلة العملية في إزرع؛ إذْ كان قادماً بالطائرة من دمشق، فاستعرض الضباط الذين كانوا سيذهبون إلى الحرب، وكان اثنان منهم لا يلبسان مهاميزهما، فنبههما بشدة، وأعطى الأوامر بالرحيل في اليوم التالي.

مع أنَّ بعض العناصر كانت قد أمضت يومين دون خبز ولا نبيذ، وأنَّ المالطيين كذلك لم يحصلوا على الرز.

كارثة السويداء

أعطى الجنرال ميشو الأوامر بالانطلاق، في وقت كانت الفوضى تسود فيه إلى حدٍّ كبير، فالجميع يطلق الأوامر، ولا أحد يعرف الدور الذي كان يترتب عليه أنْ يؤدّيه.

لكنه نسي شيئاً: وهو إشعار العميد أوجاك، المسؤول عن الموكب، عن قلب الموكب نفسه.

أقرأ في رسالة مؤلمة لناجٍ من الكارثة:

« في الساعة التي كانت العناصر الأولى فيها تتحرك، لم يكن فوج أوجاك قد أُشعِرَ بأنَّ اليوم J (أول يوم في العملية) كان قد حُدِّد، كان الضباط بلباس النوم. ومن المستحسن أن يُدَوَّن أنَّ كلمة «الموكب» كانت الكلمة الوحيدة التي سيستخدمها الجميع (بمن فيهم الجنرال) فيما بعد على الأرض، والتي لم تكن لتظهر حتى في أوامر العمليّات.

لقد ورد في هذا المستند، فقط، (أمر J، زائد I، جزء أول XI) من " التحفّظ " وكان تحركه منتظماً كانتظام وحدة مناورة شبيهة بتلك التي يجب أن يتقدم مركز القيادة برفقتها، الأمر الذي لم يحدث أبداً لأن الجنرال ميشو لم يمش بهذا " التحفظ "، ففقد فرصته في أن يكون

المارشال "سوبيز"* الجديد. أما قائد سلاح المدفعية الذي لم يكن أكثر معرفة، ولو بقليل، من رفيقه، كان قد تنبه إلى ذلك متأخرا، لكنه لم يكن لديه الوقت الكافي لتحضير قطعته العسكريّة الحاملة للذخيرة.

أعطى الجنرال ميشو أمر الرحيل!

كان كل شيء ملحوظاً في المخطط الموضوع، كما لو أن الأمر كان يتعلق بعملية من نوع عملية الاستيلاء على "دمونت "** المطلوب تنفيذها من وحدة معينة على الجبهة الفرنسية، ضد عدو ثابت، إلا أن الأمر هنا كان مختلفاً؛ لأنّه يتعلق بمناورة مجموعة متنقلة؛ مناورة تقليدية كان بوجو (Bugeaud) قد مارسها بالتأكيد على كامل أراضي العمليات الخارجية.

ماذا يهم! كان أمر التحرك يحتوي على توجيهات ثمينة بالتأكيد: " العودة للمواد من X Y من نظام مناورة الجزء الثاني، والتمرين على خارطة موندييه (Mont Didier)***.

لابد أن القارئ سيبدي بعض الاستغراب من رؤية اسم موندييه مذكوراً بمناسبة عملية الجبل ضد الدروز. إعلم إذن أن ضباط جيش المشرق وخلال كامل شتاء ١٩٢٤ - ١٩٢٥ بكامله، كانوا مدعوين للقتال والتصرُّف في الصحراء والجبل، بأمر من الجنرال ميشو، كما في كريجسبيل (Kriegesspiel) على خارطة سوم (Somme).

---

* هو شارل دو روان ، مارشال فرنسة : انتصر في سوندير شوسون ١٧٥٨ ، وحصل إثرها على عصا المارشالية والمقصود بذلك أنَّ الجنرال ميشو أضاع عصا الماريشاليّة لإخفاقه هنا .

** قلعة على مرتفعات موز (Meuse) ، وهي نقطة دفاع في منطقة فردان ، كانت مسرحاً لمعركة طاحنة عام ١٩١٦، سقط في المعركة مئات الآلاف من الجنود .

*** موندييه : معركة حدثت في آذار عام ١٩١٨ .

وتقدمت الأرتال...

على الجهة الشمالية من الطريق، كانت المرتفعات والتلال تقدم للعدو ملاجئ فعّالة على ارتفاع ١٠٠٠ متر، ، و ١٥٠٠ متر من محور السير، ولم تكن الاحتياطات الأمنية لمجابهة هذا الأمر قد اتخذت، بينما كان الطيران قد نبّه إلى وجود تجمعات، سينطلق منها مستقبلاً، هجوم ضد القطعة.

وجه أحد ضباط الأركان نظر الجنرال إلى هذه الثغرة قائلاً:

- هل ستهتم السيارة الرشاشة بهذا؟

وبما أنه كان على عجلة من أمره، فقد أسرع في الحركة.

أخيراً، نصل إلى المرحلة الأولى: موضع بصرى الحرير. الذي ينفصل فيه الجنرال ميشو عن قطعاته، وعن قيادة أركانه. تاركاً جماعته في المخيم؛ ليركب الطائرة ويذهب إلى إزرع لينام فيها.

وهنا حيث توجد القاعدة، عمَّ الغموض هيئة الإمداد (التموين والذخيرة)، وكان قائد هذه الوحدة، الذي لم يرد اسمه حتى بين المتلقين لأوامر العمليات، لا يعرف ماذا يصنع.

أما الجنرال ميشو فقد كان نائماً، ويمكن مقارنته في هذه اللحظة بكوندي الكبير*.

اليوم التالي، عند بزوغ النهار، ترغب القطعات في أن تتلقى التعليمات. ويسعى الضباط، عبثاً إلى اكتشاف قائد الحملة، مع إنكم

---

* Grand Conde : الأمير الرابع في عائلة كوندي ، وهو إبن هنري الثاني دو بوربون . كُلِّفَ بقيادة جيش الشمال ضد الأسبان وهو في الـ / ٢٢ / من عمره . تميّز بانتصاراته المتعددة . قضى آخر أيام حياته في شانتييه حيث أحاط نفسه بالشعراء والكُتّاب .

تعرفونه، إلاَّ إنه ليس في مكتبه مع ضبّاط أركانه، وبالطبع، لا يستطيع أحدهم أن ينوب عن الرئيس الغائب.

أين هو، القائد الذي يطلبه الجميع؟

لقد شُوهدَ الجنرال حوالي الساعة الثامنة صباحاً،مضيّعاً حوالي عشرين دقيقة وهو يبحث بنفسه عمّا يقطر ست عربات مفتقرة لذلك، وشُوهدَ ظهراً يُوقف سيّارته عند نقطة أخرى من الطريق، لالتقاط صندوق قذائف.

في الواقع لم يكن هناك قيادة للحملة.

الحملة تتزعزع، والرتل، لم يُقلع، والقائد يُرسل أوامره بالمتابعة مع أفراد الاتصال لكنه لم يكن متأكّداً أنَّ الأمر قد نُفِّذ. ويُقترف هذا الخطأ الذي لا يُغتفَر بمتابعة السير نحو الأمام. في الساعة الخامسة مساءً. تصل العناصر المتقدمة إلى السويداء التي تُرى قلعتها عن بُعد مرتسمة جانبيّاً في السماء. نهنئ أنفسنا على النجاح المُنظَّم الحاصل لأنَّ المناورة المُعَدَّة على خريطة موندييه قد نجحت تماماً!

لكن، في الساعة السادسة مساءً يظهر ضابط أركان حرب، ويتأكَّد من مهاجمة القافلة قائلاً :

- الحالة مأساويّة.

يحاول الجنرال أنْ يرسل العميد راينال (Raynal) نحو المؤخرة لجمع المعلومات بسرعة؛ ليلحقه إلى هناك، ليعودا بعد قليل مذهولين.

يُنصب مكان الإقامة في مكان منخفض دون اهتمام باحتلال القمم، فالمنفذ نحو السويداء: الهدف المطلوب، غير مصان.

" إنها لمعجزة ألا تكون الحملة بكاملها قد قُتِلتْ. " هذا ما كتبه الضابط الناجي الذي ذُكرتُ رسالته.

نحو منتصف الليل، يقرر الجنرال ميشو أن يمنح الغد راحة للفرق، وأن يترك حامية في المزرعة، وأن يسير إلى السويداء، ثم يُقرِّر أنْ يستمر ويتابع إلى السويداء مع كل من معه. لكن، نحو الساعة الخامسة، يغيّر رأيه، ويعقد ديوان حرب مع ضباطه، ويُقرِّر العودة إلى إزرع.

يُسطِّر أمراً بهذا المعنى (ينسى أنْ تُذكر فيه المدفعيّة)، ثم يُلغيه؛ ليعوِّض عنه بأمر آخر لا يحمل، على كل حال، أية تعليمات تفصيليّة.

تنطلق طلقات نارية، فتجرح عدداً كبيراً من الرجال والحيوانات، كان ينبغي عندئذٍ تجهيز مناورة، وتأمين الممر الجبلي الذي كانت الحملة ستمر عبره. راحوا يفتشون عبثاً، في الأمر المنوه عنه أعلاه والوارد في يومية السير، عن أي شيء ينم على مناورة.

مرة أخرى، تتحرك الحملة في فوضى عارمة، وتخترق الطريق بسرعة، طلقات نار العدو، توقف عناصر من حراس الجناح الذين هرولوا وتناثروا على الطريق وكذلك هي الحال بالنسبة إلى السوريين والمالطيين* الموجودين في الحملة. إنه الهلع.

مازلت أستشهد برسالة الضابط الناجي: " قادة رتل المدفعية يقطعون الأحزمة وحبال القطر من أجل ركوب البغال والهرب. والدروز يطلقون النيران من دون هوادة، يصعدون فوق السيارات، يحرقونها، يشوهون الجرحى ثم يقضون عليهم. المقدم سودوا، النقيب فور، الملازمون بلّو، يبجلون، بيسكانيه، تشيرفز، وكثيرون آخرون كانوا قد قتلوا...".

أين هو الجنرال ميشو؟

إنه في سيارة رشاش تعيده إلى إزرع سالماً وغير مصاب بأذى.

---

* جنود من الفرقة الأجنبية في الجيش الفرنسي .

من دون شك، وبهدوء كبير سيعتني الجنرال " بعد بضعة أيام " بتنظيم بيان يخطّه بيده الجميلة بما فقده شخصياً في الشغب، وهو في هذه الوثيقة لا ينسى أن يذكر حزمة الشموع، و دزينة من علب الكبريت، ومئة فرنك مخصصة لمطعم متنقل كان قد أمر بتجهيزه مجاناً قبل ذلك بقليل، كما قيل، وذلك من قبل أحد مكاتب الجيش.

أضرار الحرب!

في الحقيقة، يفلح الجنرال ميشو في جرد حسابات جماعته[١١].

* * *

كان بين يدي ساراي المستندات التي استخدمها لكتابة ما تقدم. وهو لا يجهل شيئاً عن الظروف التي حلّت فيها كارثة ٣ آب. مع ذلك،فهو يثور ويرعد حينما يجرؤ أحد على أن يحكم بشدة على مهزوم السويداء، ويغطيه.

إنه يتضامن مع ميشو!

لأنَّ الأمر بالتحديد بديهي في الجندية؛ حيث يفرض التقليد، وبطريقة غير مباشرة، أنَّ كل خطأ منهجي، استراتيجي، إداري يقع على رأس آخر بغّال، هذا الوضع يفرض الاحترام.

لكن - هل يعلمه ساراي؟ لم يكن هذا ما يأمل جنود جيشه القديم وضبّاطه أن يفعلوه.

إنهم واعون بسوقهم إلى المعركة من قِبَل رئيس أقل ما يمكن أن يُقال عنه إنه غير كفء. كانوا يعتقدون أن هذا الرئيس كان يجب أن يُحال إلى

---

١١ يمكن أن نعده كمحترف في هذه الأعمال الكتابية .

ديوان حرب، وإذا ما برّأه زملاؤه، تعاطفاً معه، فإحالته إلى التقاعد كانت مفروضة؛ وبذلك يكون ، قد وُضِعَ في سعادة الوضع غير المؤذي.

كانوا ينتظرون أن يقوم ساراي نفسه بمبادرة طلب العقاب لمرؤوسه. ولا أستطيع القول كم كان ألمهم كبيراً عندما علموا أن ساراي كان يفكّر بتغطية ميشو، وكيف كان سخطهم حينما بلّغهم الخبر بأن ميشو جاء ليتسلّم القيادة.

- لم يقم المُعلِّم بواجبه نحو جيش المشرق، قال لي هذا عدة ضباط خدموا تحت إمرته في فردان، وألبانية، ومقدونية، وسورية.

والآن، يبقى أمامي بعض الأسئلة لطرحها هي:

هل صحيح أن ميشو يحتج ويدعي أن هذا المستند لم يصله قط بسبب نسيان المكتب الثالث للأركان في بيروت إرسال تقرير «أوجاك» الخطّي غير المُسجّل؟

هل صحيح أنه، ونظراً لأهمية المستند، وللسرعة التي كانت مطلوبة لإيصاله إلى قائد الحملة كان قد سُلِّم إلى ضابط أركان[١٢] مسافر إلى دمشق مع مهمة إيداعه بين يدي الجنرال؟

هل تمت هذه المهمة؟

إن كانت لم تتم، فلماذا ؟

هل كان هناك إرادة، أم أنه حادث عابر، أم نسيان؟

هل صحيح أن الجنرال ميشو يؤكد بأنه لم يعلم إلا بعد فوات الأوان، أي على الأرض، قلة الكفاءة القتالية للقوات التي شكل منها فوج أوجاك؟

---

١٢ الملازم جورج بيكو .

هل صحيح أنه، في دمشق، ليلة ٢٩ تموز، أثناء اجتماع ضباط كبار ورؤساء دوائر، كان النقيب أوجاك قد ردد عبارات تقريره شفاهة، وحينها لفظ الجنرال ميشو هذه الكلمات: " لا تقلقوا أبداً، لن تتدخّل وحدتكم.."

هل هذا صحيح؟...

لكن، ما الفائدة من إطالة هذا الأسئلة؟

لنختم بهذه الجملة التي هي على شفاه جميع ضباط المشرق وجنوده الذين سقط رفاقهم على طريق السويداء: " يجب أن يكون هناك تحقيق بخصوص دور الجنرال ميشو ولن يرتاح تفكيرنا! إلا حينما يُؤمر بذلك."

لكن يجب أن يكون أمر هذا التحقيق قد أُوكل إلى لجنة مؤلفة من مدنيين، وتتمتّع بمطلق الصلاحيّة لفتح الملفات جميعها، وتقوم بكافة الاستجوابات[١٣]

١٣ التحقيق المطلوب بهذا القدر من السذاجة من قبل جيش المشرق لم يُؤمر به ، وكما رأينا فإن الجنرال ميشو حصل على ترقية جديدة .

السيّد روبير
مدير البيوت العسكريّة

" لتهب الريح، ليهطل البَرَد ، والصقيع، فلديَّ رغيفيَ المخبوز. "
(فرانسوا فيّون)

(François Villon)

فندق درعا !...

أصدقائي في الوطن إذا ما عدتُ يوماً لرؤيتكم فأنتم من الذين لن أنسى حفاوتهم، أرجوكم أن تصنعوا شيئاً ما من أجلي.

لا تدعوني أذهب لأنام في فندق درعا.

اسمحوا لي أنْ أُشاطِرَ السيد "تيريو Tiraillou" خيمته، أو أعطوني بطانية من بطانيات الجيش. سأذهب لأتمدد على اسمنت قاعة انتظار المحطّة، بين البدو من الرجال والنساء. بين أشقائي القذرين ذوي الثياب الرثّة "إلى حدٍّ كبير"، المسكونين بالهوام كما أعرف.

ذلك أفضل، نعم، أفضل، فكل شيءٍ في هذه الغرفة اللزجة كريه الرائحة، حيث قضيتُ الليل على هذا السرير الذي تملكتني فيه فكرة لن يستطيعوا انتزاعها أبداً، مفادها أنَّه "وقبل ساعة من وصولي" كان قد تمدَّدَ على هذا السرير جثمانٌ ثم حُمِلَ وأُلقِيَ به في الطريق لأحُلَّ مكانه.

ما يزال الليل شديد الظلمة عندما غادرت هذا المستودع المخصص للموتى. كانت السماء تمطر، كما أمطرت البارحة، وكما ستمطر غداً وفي الأيام القادمة كلّها. ها أنا ذا أتخبط في بحيرة من البحر المُجلّد.

ومميض حريق في الظلام أو بركان مُفاجِئ، صوتٌ مُدَوٍّ، لهاث. بركان يقذف دخاناً مُحمراً بلون الكبريت، أو مخضراً بلون الرماد يبدأ بالمسير متجهاً نحوي.. أجد نفسي على الخط الحديدي حيث يتحرّكُ القطار الذي سيقلني إلى بصرى.

الفوانيس تُضَاء.

ويزدحم الرصيف بالظلال المتحركة، فأُمَيِّزُ وجوهاً برونزيّة بشوارب كثّة، وجباهاً مزينة بعقال من ثلاثة تيجان من وبر الجمل، ذقوناً دقيقة موشومة، عيوناً جميلة من الميناء. بدواناً كانوا قد غادروا قاعة الانتظار التي كانوا يستخدمونها للمنامة، يجرّون حمولاتهم على الرصيف، يجلسون القرفصاء مع صغارهم، في الوحل، وتحت المطر الذي لا يرحم. تكتم الأمهات أصوات أطفالهن الباكية بين طيات أثوابهن.

يتوقف القطار بمحاذاة الرصيف. لقد قطروا إليه عربة مسطحة تتكوم عليها أكياس أرضية. إنه المركز المتنقل لفرع حامية المشاة.

ينهض البدو: رجالاً ونساءً و أطفالاً، تتكدس الحزم في المقصورات.

زمر نحاسية البشرة ومخضّرة البشرة تظهر في الأفق. يوشك النهار على البزوغ على المنطقة المبذورة بحجارة بركانية.

صوت عالٍ صارخ ينطلق من أعماق الرأس، ونغم يائس يلوح بلا نهاية. تبدو لي هذه اللهجات مألوفة، كم من المرات قرعت أذني، في الصباح الباكر، في الأناضول، في مصر، في مقدونيا !

لكنها كانت تثير لديَّ دائماً الانفعال نفسه. أرفع بصري، في الفجر المبهم، أفتش عن المئذنة التي يصدر عنها نداء الصلاة المؤثر، والتي تبدو قمتها على شكل قبعة رجل من بلاد الأنام*، متجاوزة سطح المحطة. إنَّها مئذنة بسيطة من الخشب لمسجد القرية المتواضع !

يستمر المؤذن بأعلى صوته: " الله أكبر.. " وهو منحنٍ على الحاجز.

كان الأخ المؤذن، يتمتّع بصحة، تسمح له بأن يصرخ بهذه الطريقة وتحت هطول غزير كهذا !

" محمد رسول الله... "

ستنسخها لي !

وأخذ رجال فرقة الحراسة يطلقون ضحكاتهم، وهم يسعون إلى نسيان البرد المخيف، والمطر، والمنفى، والرفاق الموتى، كما يسعون إلى عدم التفكير بالأرتال المقبلة التي سيكونون جزءاً منها.

- لديكم من الصحة ما تستطيعون من خلاله المزاح و الضحك، قالها هادئاً بصوت حاسمٍ مخيف: أما أنا فقد سئمت !... لقد كنت مع ميشو على طريق السويداء في الثالث من آب !... ورأيت الرفاق يُذبحون ويُحرقون !... ومنذ ذلك الوقت وأنا لا أريد أن أعلم شيئاً... لن ينالوا منّي أبداً !...

هذه الرطانة كانت مألوفة لديّ أيضاً ! نبرات صوت الجندي المنفي الذي تلوعّه الهموم !

تقع على الرصيف بندقية مرمية بعنف، إنها لذلك الرجل الذي كان على طريق السويداء، مع الجنرال ميشو والذي، لم تعد لديه رغبة في الضحك، منذ ذلك اليوم...

---

* الأناميون : سكّان الجبال في الهند الصينيّة .

أحد رفاقه يقفز من القطار، ويتناول البندقية، ثم يتخطى، من جديد، الأكياس على الأرض، أسمع تأنيبات :

- الجميع يائسون، ليس من سبب يدعو للعب دور المغفل... اسكت!... اسكت !... هل ستطبق فمك !...

يستمر المؤذن في مناداة المؤمنين إلى صلاة الصبح. في السماء، تتعاقب الأشرطة بين الأحمر والأخضر وهي الأكثر طولاً، والأكثر عرضاً، والأكثر لمعاناً. فيما وراء الطريق، تسود البلد إنارة كدرة، وحيث بقع الماء بلون النحاس المحروق والمخضر، تمر جِمَال أربعة بعضها خلف بعض، مقيدة بحبل يسوقها حمار صغير، يركب عليه ولد، ورجل يقرفص على عنق الجمل الأول.

- إنَّها بطاقة بريدية جميلة !

تمتم أحدهم من ورائي بطريقة ودية بلهجة سكّان الوسط في بلادنا. ألتفت فيحييني أحدهم،كان يرتدي معطفاً رمادياً مصقولاً مخصّراً، تبدو قبته الرخوة وربطة عنقه رثتين.

كانت ذقنه طويلة لم تمر عليها موس الحلاقة منذ بضعة أيام، وكانت العين صغيرة، والجفن مثقلاً، والنظر حاداً. ماذا يمكن لهذا المدني الفرنسي أن يعمل في درعا ؟ كنت أعتقد أنني الوحيد الذي خاطر بالمجيء إلى هذه المنطقة ولم يمر سوى أسبوع على إصلاح خط دمشق - بصرى اسكي شام.

وهم، وهم ضائع !

الرجل ذو العصبة الجميلة التي توحي بعصبة محاسب حانة، تبيَّن أنه صاحب فندق طولون القديم أو وكيل أعمال لوازم.

- لا مجال للكلام، إنَّها بطاقة بريدية جميلة، ذات طابع محلّي !

وبودٍّ كبير حقيقي يتابع :

- أنت ذاهب إلى بصرى من دون شك ؟

أنا قليل الاتصال بالآخرين، ولا أحب تبادل المعلومات الشخصيّة الخاصّة بي مع غريب ، لا في البواخر، ولا في الفنادق، ولا على أرصفة المحطّات. ثم وبعد كل شيء هل ينبغي عَلَيَّ أنْ أقول إنَّني أتهرّب من الفرنسي المستوطن في بلد آخر. "فهو وفي كثير من الأحيان " يحب أنْ يتقرب مني بهذا الشكل إلى درجة أنَّه لم يعد يسرني أنْ يراني أحد برفقته، حتّى من قبل البدو أنفسهم.

- أنت ذاهب إلى بصرى من دون شك ، يردّد الرجل. وأنا أيضاً. (ثم يكمل): نسافر سويّاً أيضاً لأنَّني أسافرُ، في الواقع في الدرجة الأولى.

وعلى أية حال فأنا وإنْ كنت لا أبحث أبداً، بل أتجنّب الدخول في علاقات مع أمثالي ممَّن ألتقي بهم في الأماكن البعيدة، فإنَّني ما عرفتُ ولن أعرف أبداً كيف أدير ظهري لشخصٍ غير مرغوب فيه، أو أن أرفض المكان الذي يُقَدِّمه لي بجانبه، أو حتّى منعه من الجلوس بقربي. كم مرّة " ورغم مبادئي وإرادتي، ساعدتُ الآخرين على أنْ أكون أسيراً لأناسٍ مثيرين للسخرية وكريهين ! وكم تكبدت من العناء للتخلُّص منهم.

وإذا ما شاءت الظروف ألا أذهب منفرداً هذا الصباح، فلن أفلتَ من قدري. لكنّني مُصون من ضعفي ومن المزعجين. مصون لأنَّني تحت الوصاية. وينبغي أنْ يرافقني ضابطان وزوجتاهما الشابتان. لقد ظهروا في اللحظة التي كنتُ أبحثُ فيها عن طريقة للهرب. ثم تبعتهم لنأخذ أمكنتنا في القطار.

يبتسم رفاقي، ويتبادلون نظرات مسلّية، ويتابع الرجل ذو المعطف الرمادي الموشّى التمشي في الممر أمام مقصورتنا، ثم يلقي التحية وكانت تتبعه امرأتان، إحداهما مُسلمة بحجابها المرفوع، والأخرى مسيحية. وكلتاهما مصبوغة الشعر بالحناء الصهباء، وكانت أجفانهما مظللتين بالأزرق وخدودهما ملتهبة بالخضاب، وكانتا تدخنان. ومن خلفهما رجل مسن يعتمر الطربوش، ويحمل منشار خشب وكيسين فيهما بعض المؤونة.

- أتعرفه ؟ يسألني أحد الضباط.

- كلا

وأشعر، من ابتسامته، ومن ملامح نظراته، أنه غير جدير بالثقة.

- ألا تعرف السيد روبير، مدير المنازل الثمانية عشر العسكرية[١٤] في جيش المشرق ؟ أتعلم أنه شخصية مهمة ؟

- لا أشك في ذلك أبداً !... ولاحظت، مرة أخرى أيضاً، أنني أضعت فرصة خلق علاقة جميلة.

يتحرك القطار، يقطع ثلاثة كيلو مترات، ثم يتوقف ساعتين، ثم ينطلق من جديد، ثم يتوقف وقفة أخرى أطول من الأولى؛ وبذلك فُقد كل أمل بالوصول إلى بصرى - أسكي شام وقت الغداء. ولا يعلم إلاَ الله، إن كنا سنقضي الليل في مقصورة أم لا.

إنه السفر في بلاد في حالة حرب، وعلى طريق يقطعه كل يوم، العربي بمن فيهم الدرزي، ويجب إصلاحه.

---

١٤ في الحَياة المدنيّة نقول منزل يقصد ماخور .

نحن صابرون، أو بالأحرى مستسلمون. لقد فقدنا كل شعور بالوقت. ننظر عبر الزجاج الذي يرشح ماءً قذراً محمراً، ممتداً إلى ما لا نهاية. أسعى، شخصياً إلى الاعتقاد أنني أشعر بارتياح وفخر عالماً أنني اخترق السهل حيث هزم إسرائيل ، ملكَ باشان، أوغ، وقتل رعيته حتى آخرهم واستولى على أراضيه.

ظهر السيد روبير على باب مقصورتنا. كاشفاً عن رأسه، منحنياً. أنا متأكد تماماً، في هذه اللحظة، أنه كان وكيلاً لدى أحد الملاكين؛ وكيلاً يتكلم إلى الشعب. فهناك حركات لا يمكن أن تخدع.

- أيها السادة والسيدات. قال بألم: أرى أن ليس لديكم مؤونة. أما أنا، فإنني محتاط بطبيعتي. وكل ما فعلت أنني أحضرت ما يلزم لتناول طعام الغداء، و....إن كنتم ترغبون...

نظرنا نحن المسافرين بعضنا إلى بعض، كان الأربعة أشبه بشارلي شابلن في أشد أوقات الحرمان في فيلم "المندفعون نحو الذهب "، ومن المحتمل جداً أن تعبير وجهي كان مماثلاً لتعابير وجوههم...

- قال السيد روبير: هيا، لنترك التكلف، إن دعوتي نابعة من القلب.

وليحاسبنا ذاك الذي لم يدركه الجوع بين درعا وبصرى ــ أسكي شام، في فترة بعد الظهر من شهر كانون الثاني، والذي لم يتساءل أبداً متى تحين ساعة وجبته المقبلة !

وبما أنَّنا لا نمتلك القوة على مقاومة الصوت العذب؛ الصوت المغري لمدير البيوت العسكرية لجيش المشرق، وبما أننا كنا مكرهين تقريباً على قبول الخبز، والسردين، والطون البحري، والجبن، والبيرة، والبرتقال،

واليوسفي. وعلى أكل هذه المواد التي حصلنا عليها كلها، دون أن يسمح لنا بالتفكير بأن هذه المواد مشتراة بأموال شائنة. يا لي من رجل مبادئ !!! و....تراجعت بسرعة !

الآن، لم يعد لديك سوى أن تذهب وتشكر ذلك الرجل الذي قبلت أن تكون ضيفه في مقصورته بالقطار.

كان السيد روبير يقرأ، ويقرأ " جميلة تحت الصنوبر " لهنري بوردو، الرجل صاحب المنشار الناعم نائم، والمرأتان ذواتا الوجه الملتهب بالخضاب تغنيان وتدخنان، وفي فم كل واحدة منهما من الأسنان الذهبية، على أقل تقدير، ما يساوي قيمة ثلاث ليرات تركية ذهبية.

قمت بتقديم شكري

- ماذا، ماذا... إنه أقل ما يمكن بين فرنسيين، قال السيد روبير، وهو ينهض ويضع كتابه جانباً، ثم يتبعني في الممر، ويمدّ ليّ علبة السجائر المفضضة : سيجارة ؟ إنهم يصنعونها خصيصاً في اللاذقية من أجلي، أظنُّ بأنَّ لدي الأفضل من بين الأشياء في سورية... في مركزي!

- هذا حق تماماً !

كان يكفي أن أتلفظ بهذه الكلمات الثلاث حتى يشرق وجه السيد روبير، ويعلم أنني أعرفه، وأن صيته قد وصل إليّ، وهو يستطيع الآن أن يسر لي، وأن يعرض عليَّ خدماته.

- ثمانية عشر منزلاً أديرها يا سيد، وجميعها يعود لجيش المشرق ! لدَّي هذا الامتياز، لقد أوجدت هذا كله خلال أربع سنوات، باشرت عام ١٩٢٢، قبل ذلك كان لدي مقهى صغير في بيروت، حين استدعاني الجنرال غورو في أحد الأيام وقال لي : " روبير، أنا أعرفك. إنك مدبِّر،

ستجهز لي منزلاً للقطعات، لقد صادرت بناية لهذه الغاية، اذهب وأرني ذلك، نفّذ لي العمل بسرعة متناهية، أمنحك ثمانية أيام لتكون هذه البيوت جاهزة للعمل، إلى اللقاء. زرت المبنى، يمكن أن يناسب الغرض المعني، لكن يلزمني مستخدمون، أقوم بجولة في الحي الكائن قرب ساحة المدفع، أستكشف المنازل فيه وأستخدم عشر نساءٍ. كان يلزمني طاولات، كراسٍ، وجهاز بيانو لجعل العمل راقياً، وقاعة جلوس، مفروشات للغرف، مشروبات، لكن ليس لدي المال الكافي. ماذا كان بإمكانك أن تفعل لو كنت مكاني يا سيّد ؟ لقد عدت لمقابلة الجنرال، وشرحت له الأمر، وعند أول كلمة أوقفني ليقول : " فهمت يا روبير ! ثم ينادي ضابطاً: "هيئ لي قسيمة بمئة ألف فرنك على حساب الخزينة" وينصاع الضابط للأمر، ويوقع الجنرال الصك، ثم أذهب إلى مسؤول الدفع، أقبض المئة ألف قطعة، وأشتري كل ما يلزم، وفي اليوم المحدد، أفتتح المنزل.

كان ذلك يوم سبت الساعة السادسة مساء، في صباح اليوم التالي، وفي الساعة السابعة كانوا لا يزالون يعملون في المقهى وفي الغرف، وعند رحيل الزبون الأخير، كان قد مرّ على المحل مئتان وثمانية وثلاثون زائراً في الغرف، وبواسطة عشر نساء يا سيد ! يمكن القول إنه رقم !...

" واستمر الأمر هكذا، وللحقيقة، كنت قد أعدت المئة ألف قطعة نقدية إلى الجنرال؛ لأنّني لم أعد بحاجة إلى سلفة فرنسة "

كنت أستطيع متابعة السير بوسائلي الخاصة.

- روبير، أنت متفوق، لو كنت متمالكاً نفسي، لوهبتك ترفيعة، قال لي الجنرال.

" إن مستخدميَّ يحتاجون إلى عناية، إنني أفهم الجنرال، وهو يتفهمني "، ينادي واحداً من الضباط ويقول له :

" صمم لي برنامجاً منظماً من أجل منزل روبير، يُفتح كل مساء من الساعة ١٧,٠٠ حتى ٢٠,٣٠، ويُفتح الأحد صباحاً من الساعة ١٣,٠٠ إلى الساعة ١٦,٠٠، ومسائية مطولة للمأذونين حتى الساعة ٢٣,٣٠ . ليعلن هذا البرنامج في منزل روبير ويُدّون في بيان وحدات العمل ".

- إنَّه جنرال نحتاج إلى كثيرين من أمثاله، كنت أقول هذا لنفسي حتّى أقطع الكلام الأحادي الجانب.

- إنَّه واقع وسمعتي تنتشر في البلاد؛ لذلك فهم يطلبونني في حلب، وطرابلس، وحمص، وحماة، ودمشق. وهكذا، من محل إلى آخر، أصبحتُ الآن على رأس ثمانية عشر منزلاً تضم مجموعة مُؤَلَّفَة من مئتي امرأة.

- إنَّها مجموعة صعبة الإدارة بعض الشيء ؟

- نعم ....ولا، أنت تعلم ما معنى ذلك، هناك طريقة للحصول على العالم. أنا أمتلكها... «قاسٍ لكنْ عادل»، هذا هو شعاري، والنساء تحب هذا الأمر. حينما تقترف إحداهن خطأ فإنَّها لن تفلت منّي: الغرامة بانتظارها : لكن، لا أستعمل الضرب ألبتّة. باختصار أقول ومن دون تبجّح، إنهن يحترمنني، وهكذا أقضي ليلتين أو ثلاث ليالٍ في هذا المنزل، أو ذاك وهكذا، يا سيد، تأتي جميع النساء إلى غرفتي عندما أنادي، واحدة تقبل يدي، وأخرى تقدم لي القهوة. أتمنى أن تتمكن من رؤية هذا. لكن، هناك إزعاج، مثلاً : الحب !

- الحب ؟

- نعم، إن أنثى هذه المنازل عاطفية. تتعلق بسهولة بأصحاب

المراتب، افترض أنك تدير عملاً ما، ولديك ثلاث نساء. جيد. و.... إحداهن تقع في غرام صف ضابط، ماذا يحدث ؟ العاشق يكون هنا كل مساء، من الطبيعي ألا يطلب الجندي من صديقه صف الضابط أن يسمح للمرأة بمصاحبته إلى غرفتها.، قد يعلم ما يكلفه ذلك ! إذاً موظفوك، جزء من جهازك، إذاً، أصبح غير عامل، هذه خسارة، لكن لدّي نظرة، فعندما ألاحظ شيئاً من هذا القبيل، أنقل المرأة، من حمص، وأرسلها إلى دمشق أو من مرجعيون إلى إزرع.

ثم هناك أيضاً الوكلاء. فأنا لا يمكنني أن أكون في كل مكان بآن واحد، السيدة روبير تدير منزل طرابلس، وأنا مطمئن من هذه الناحية، لكني، أضطر، في أغلب الأحيان إلى وضع وكيل عني في المراكز الأخرى، وهناك ذلك الصف ضابط الذي أنهى خدمته ، وقد فضل البقاء في سورية على العودة إلى الوطن. وقد طلب مني عملاً، فأوكلت إليه واحداً من بيوتي، إنه جيد لأنه نشيط،وهو يعرف القطعة، ويعرف كيف يكون محترماً. « لكن في نظام التدبّر، تسير الأمور، مع ذلك، ببعض القوة، وهناك بعض التبذير، لكن ليس بالنسبة إلى الخلوات، فهذا غير ممكن، فالنساء لديهن فيش باسمهن من أجل التعامل، وكلما صعدت واحدة منهن، ينبغي أن تعطي قسيمة للصندوق. وعلى المدير مراقبة عملهن وإيداعهن الفيش مراجعاً ذلك كله بشكل آلي كما أقول ".

« قد يحصل الخلط في المشروب مع زجاجة من دوبنيه أو بيبرمنت» إذ يضع الدليل اثنتين منهن، ولا يلاحظ الزبون ماذا يُقدَّم له، وهكذا أنت يا سيدي، فعندما تذهب إلى بيت دعارة، فليس ما يهمّك نوعية ما يقدم لك من شراب، والوكيل يعلم ذلك، ويبالغ فيه.

وأخيراً يتوقف القطار أمام " محطة المسيفرة، حيث تتمركز فرقة الجيش الأجنبية* التي سُجِّلت بطولاتها في حاصبيّا وراشيّا " وكانت تساوي الأجمل في التاريخ " [١٥]

تقف الفرقة كلّها على الرصيف : ضباط يلتحفون بعباءاتهم الكبيرة البيضاء، وصف الضباط في ثيابهم الخاكي، وجنود في ثياب التدريب، وكثير من الروس، والبولونيين، والتشيكيين، والألمان... وبعد ذلك، جماعة من بلدنا، جماعة لم يعد لهم أسماء. بعضهم جاء إلى هذه الفرقة الأجنبية محاولاً نسيان ماضٍ ثقيل ومؤلم جداً، والآخرون جاؤوا ليكونوا في ملجأ من التحقيقات عن جرائم ارتكبوها. وآخرون، يحبون العنف، علماً " أن العنف بكافة أنواعه، يصبح بطولة " في الحرب. واحد من صف الضباط يراقب عمل سخرة لتوزيع اللحم، وقبعته تصل حتّى الحاجبين، وسيجارته بين الشفتين، يضرب جزمته الجلدية بسوط مصنوع من عصب البقر، إنَّه صغير الحجم، قوي البنية، أحمر الوجه، ساقاه مقوستان، فكّاه هائلا المنظر، وشارباه الكثيفان أصهبان ومطليان بمادة مثبتة، مفتولان كقرني كبش، وعيناه الزرقاوان القاسيتان كعروة أزرار ضيّقة.

يتكلم ويتكلم كما لو كان صائماً عن الكلام منذ عشرين عاماً في أسوأ الأماكن في باريس. تلفت حنجرته بسبب الكحول، أو بسبب الأمراض المعدية، ولم تعد تصدر سوى بعض الرنين الأجش، وكأنها واحدة من آلات الموسيقى البربرية.

---

* Le gion etrangere : فرقة عسكرية من جنسيات أجنبية مختلفة ، انخرط عسكريوها في الجيش الفرنسي ،وأصبحت قطعة منه تعرف بهذا الاسم وتتصف بالقسوة .

١٥ تقرير الجنرال جاملان .

كنت أرى هذا المتوحش الأصهب يعيث في البلاد، يدخل قرية، مقتحماً منزلاً عربياً يخربه، أرى كل شيء !..

قد أكون مخطئاً بكتابتي هذه ؟ فقد يلقى هذا الرجل حتفه غداً في اشتباك، ويصبح، إذاً، بطلاً...

ينحني السيد روبير على البوابة، فالضباط يعرفونه.

- أهذا أنت ! روبير ! صباح الخير يا روبير.

يرد السيد روبير التحية عسكرياً.

- صباح الخير، سيدي النقيب، صباح الخير سيدي الملازم.

تمتد الأيدي نحوه، وهو يرغب في أن يضع يده في أيديهم مصافحاً.

يمكن مصافحة السيد روبير من دون شك؟ لأنه، ومن هذه اليد، يمكن أن تتناول الخبز، واللحم، والجبن، والفاكهة، هذا السفر قد علمني أشياء كثيرة.

- هل تأتينا يا روبير بنجدة ؟

- لا، يا سيدي النقيب.

كيف لا ؟ وهاتان الاثنتان ؟ " يشير النقيب إلى المسلمة والمسيحية اللتين، تنحنيان على باب آخر، وتضحكان ؛ لأنَّ الجنود يوجهون إليهما حركاتٍ، لا يمكن الشّكَّ فيما تعنيه.

- سيّدي النقيب هاتان السيدتان هما لبيت بصرى، علمت أن هناك ضغطاً في هذا الوقت.

- طلقة نار !

هي كلمة، ويبتسم السيد روبير.

أصوات مبحوحة، نساء أمازونيّات يتدافعن مرتديات ثياباً مبهرجة، صوت أخفاف على الوحل، شعور سوداء، حمراء، شقراء احتبستها يد بعد أن التصقت، بفعل مياه المطر، على قحف الرأس بخصل متيبسة، خدود محمرة، عيون بهالة زرقاء، أفواه مرصوفة بالذهب.

يقول لي السيد روبير وهو مفعم بالفخر: هذا واحد من العاملين لدَيَّ في المسيفرة، لقد أبرقت له بأنني سوف أمرّ اليوم في المحطة، فجاء لتحيتي... آه، هذا تهذيب.

يمد السيد روبير يده للنساء، تقبِّلنها الواحدة تلو الأخرى، ثم، تصعدان إلى المقصورة بصرخات وضحكات، ، تقبلنَّ رفيقتيهن اللتين ستكملان الملاك غير الكامل لبصرى - أسكي شام.

يعود القطار للانطلاق، وفي نيّة السيد روبير متابعة تثقيفي.

- لو وَجَبَ أنْ نُصغيَ إليهم لكان علينا أن نرسل لهم نساء جديدات كل ثمانية أيام، وهذا غير ممكن يا سيد. أنت تفهم هذا جيداً. السفر مكلف، ويحتاج إلى نفقات كثيرة، ثم، أترى كم نضيع من الوقت !... أنا مضطر إلى الانتباه إلى هذا كله، واحتساب كل ما لديَّ من العناصر، وعدم الأمر بالتنقل إلا برويّة؛ لذلك أبقي كل مجموعة في منزل واحد وأطول مدّة ممكنة من الزمن، وأبدّلها حينما أشعر أنه طال النظر إليها، ولم تعد تدّر إيراداً، في هذه الحالة أحدث التبديل، برقياً دائماً، بوصفي واحداً من الجنرالات.

- وقسم استخدام الموظفين التابع لك ؟

- كنت سأذكر ذلك، فأنا أقوم، من وقت لآخر، بجولات في المدينة،

وأجري اتفاقات،ثم، ولما كانت لي سمعتي في البلد، فالأهالي يأتون إليَّ ببناتهم، لكنني حددت سناً أدنى للقبول، لا دخول إلى منزل روبير قبل بلوغ الثانية عشرة، يا سيدّ...

" ولكن، قد أُخدع، وهكذا، فقد قبلت في الأسبوع الأخير، منتسبة فتية جداً، هل تصدق، يا سيد أن الطبيب العسكري المكلف بالفحص لم يستطع حتى إدخال جهاز الفحص الطبي.

نسير مسرعين، وأمام مركز مُقام على طول الطريق. تتجمع قرابة عشرين خيمة على الأرض الرخوة الموحلة، ويخرج منها بعض التعساء، ملوثين بالوحل، وهم يلوحون للقطار بأيديهم، حيث يشكل مروره اليومي التسلية الوحيدة لهم.

- وهؤلاء، يا سيدي، الذين سيبقون هنا، ولعدة شهور ربما، من دون أن يبَّدلوا ؟ هل تعتقد أنهم لا يستحقون أن يفكَّر بهم، وأن يعرفوا أن أحداً يهتم بمعنوياتهم ؟ لقد جهزت فرقاً متنقلة من أجل المراكز المنعزلة في المنطقة : امرأتان أو ثلاث سوف يعشن تحت الخيمة مع الفرقة لمدة ثمان وأربعين ساعة، كما يترتب عليّ، دائماً، أن أرسل إليهم، في الغد ما هو جاهز! وأن أقيم نظام تناوب. ينبغي المساواة في كل شيء. لهذا السبب لسنَ دائماً من البلد؛ لأنه، ولْنقلها بيننا، فهذه ليست حَيَاة. وإنكم تلاحظون أن النساء يفضِّلن حياة المنزل؛ ضع نفسك مكانهن يا سيدي، لاسيّما أن لديَّ الرفاهية بحد ذاتها، ستأخذ فكرة عن ذلك عندما تعلم، أنني وضعت جهاز بيانو آلي وكل ما هو جميل، في كل دار أقمتها.

- ثمانية عشر جهاز بيانو آلي، يا سيد روبير ؟

- نعم يا سيدي، ثمانية عشر، وقد أوصيت عليها كتابياً دفعة واحدة، من محل ليمونير، ١٦٦، جادة دومنيل في المنطقة ١٢ من باريس*، ودفعت قيمتها مسبقاً وبواسطة شيك، أريد أن يكون الجندي الفرنسي مرتاحاً عندي، يا سيدي، هذا هو فخري.

« ثم إنني أقوم أيضاً بالتموين، وأنا موجود مع القطعات كلها في كل مكان، وحيث توجد هناك معارك أصل مع شاحناتي، أحمل ما يلزم من الأكل والشراب للمقاتلين، كما أحمل الخمر والجعة وشراب الليمون لأفراد القطعات من الجنود، والشمبانيا للضباط. لقد كنت في السويداء، آه يا سيدي !... ذلك اليوم !... ماذا كان سيحدث لولا وجودي هناك ؟ »

" هل تتصور أن الجنرال ميشو لم يفكر حتى بأن يُحضر لهم الماء، كنت أيضاً في راشيّا، وفي حاصبيّا، أنا موجود، في كل مكان.

« بالطبع، كل هذا يدرّ عليّ، ليس لأن المبيعات جيدة فقط، كما تعتقد، بل يدرّ أيضاً بعض الأشياء العينية، ستفهم ذلك. فنحن لا نحرق البيوت بما فيها، بل نُخرج الأفضل، لأنَّه يُعَدُّ غنيمة حرب، وكل واحد يأخذ نصيبه. لكن، كيف ننقل هذا كله ؟ أمرٌ مع شاحناتي " زجاجة جعة لقاء صينيتك النحاسية، يا صغيري " أعطي الزجاجة، وآخذ الصينية، " زجاجة شمبانيا لقاء سجادتك، أيها القائد، عشر زجاجات - خمس.

« نتفق على نصف دزينة، وأُحمّل السجاد، في أحد الأيام، حملت سريراً تاريخياً، كان الملك فيصل قد نام عليه، الآن، إنه ملكي، يا سيدي ».

---

* باريس : مقسمة إلى عشرين منطقة وفق نظام البلديات المتبع في مدن فرنسة تجمعها بلديّة كبرى هي بلديّة باريس المركزيّة .

« أنت لا نستطيع أن تتصور كل ما حصلت عليه من قطعاتي : سجاجيد، أقمشة، نحاسيات. إنها ثروة يا سيدي».

- « لقد كانت القطعة نافعة لي ! لكن، هناك مخاطرة، ففي كثير من الأحيان، وفي طريق العودة، كان الأنذال يطلقون العيارات النارية باتجاه شاحناتي، أطلق النار بدوري، لكن، كيف تريد أن أحمي نفسي بواسطة بندقية فقط ؟ لذلك، طلبت من القيادة أن تنصب لي رشاشاً على كل من شاحناتي، والموضوع قيد الدراسة».

ويتحسس السيد روبير عروته.

- أنت، لن تصدقني يا سيدي علماً بأنني لا أكذب، أنا أخدم الجيش منذ أربع سنوات ولم يمنحوني* هذا !...

- صبراً، يا سيد روبير !

- لدي من الصبر الكثير يا سيّدي، لكني أجد وباستثناء احترامك أنت لي فإنَّهم، وفي بعض الأيام يسخرون منّي قليلاً. لكن، وفي نهاية الأمر ما يعزّيني حتى الآن هو، أنَّ حياتي مؤمنة ماديّاً. فإلى جانب ما لديَّ في المصرف، وإذا ما أردتُ أنْ أبيع منازلي الثمانية عشر مع ما لديَّ من مكتسباتي من الحرب فإنَّني قد أحصل على سبعة أو ثمانية ملايين. أليس هذا لطيفاً خلال أربع سنوات ؟

" لكنّك تفهم جيّداً بأنَّه ليس في اللحظة التي تكون فيها الضربة مثمرة أتصرّف هكذا. في الأحوال كلّها أنا مدين للجيش بكل شيء وأنتظر أنْ تتعدّل الأوضاع لأنسحب.

- بلياقة.

---

* إنه يعني أن الجيش لم يقدم له وساماً بعد .

- النساء يا سيدي ؟ هناك مفهومهن للواجب!!!.

- ومفهومهن للشرف!!!.

- بالطبع ! ماذا تريد... الإنسان لا يكرر نفسه. وكما ترى فأنا مستمرٌّ في تحسين خدماتي. هذا العجوز القصير الذي ينام ومنشاره بين فخذيه هو نجّاري. لقد جئتُ به إلى بصرى ليهيئ لي قاعة للضبّاط؛ لأنَّه حتّى الآن، كان هؤلاء الضباط يجتمعون مع جنود القطعة. لا، فأنا مضطر إلى مراعاة التراتبية !

لماذا، وكيف قلت للسيّد روبير إنَّ فندق درعا مسكن مقزز، بؤرة مياه قذرة، وإنَّني لن أضعَ فيه قدمي إطلاقاً ؟ لا أدري...

رماني السيّد روبير بنظرة آسفة وقال :

- آه ! يا سيّدي ! لو كنت قد علمتُ بذلك ! تعلم أنَّني ما كنت قد تركتك تذهب إلى هناك! فهو ليس المكان الذي يليق بك. عدني بأنَّك، ولدى عودتك، سوف تشرفني بقبول استضافتكَ في منزلي.

لكنني لن أمرَّ ثانية بدرعا.

ما الذي نتعلمه في دمشق

على الرغم من أن السفر يحمل شيئاً من المفاجأة[١٦]، إلاَّ أنَّ الوجهة يجب أن تكون إلى دمشق، إذا ما أريد حقاً التعمق في الروح السورية ومتابعة خفقاتها.

حلب، حلب الحقيقية، حلب المسلمة، القاسية والعصيّة على الفهم، والممتدة بين القلعة والصحراء، لا تسلّم سرّها. وبيروت الجامعة لأجناس متعددة ومختلفة، بيروت الفاسدة، مشغولة بالمنافع المادية وحدها، مشغولة بالكسب، وهي تمارس بمهارة تامة قول الكلام الذي يرغب السامعون في سماعه، وأياً كانوا.

تستسلم دمشق أكثر للحركة والصخب. يطلق العربي عليها اسم الشام، وهو الاسم نفسه الذي يطلقونه على البلد بأجمعها، إنها محاطة بحدائق مبهجة ومسقية من دون انقطاع بآلاف الجداول القادمة من الجبال، التي تغذي أجمل الأشجار المثمرة في العالم وتساعد على نموها، هذه الأشجار التي يؤكد القرآن الكريم على أنها صورة من الجنة. إنها دمشق قلب سورية ودماغها.

---

١٦ كنت أكتب هذه السطور والتمرد المسلح في أوجه (في تشرين الثاني ١٩٢٥) لقد تحسنت اليوم الحالة كثيراً . فالرحلة من بيروت إلى دمشق أصبحت تتم من دون حوادث .

في شوارع هذه المدينة الواسعة، ذات السمة الشرقية الخالصة، والغنية بمئات الجوامع، والقصور والأطلال القديمة الغافية تحت الغبار المتراكم عبر القرون، يعج شعب ملوَّن وهائج لدرجة يقوده فيها تعصبه وكرهه للأجنبي أحياناً لارتكاب أفظع الأعمال.

لا يمكن إطلاقاً إحصاء هذا الشعب، ولا يمكن لأحد أن يفتخر بأنه توصل إلى معرفة كنه عواطفه وأمانيه، أو أن يتكهن بردود أفعاله المتوقعة في ظروف وأحوال معينة.

يغذي رجال الدين تعصبه، ومن خلال عدد لا يحصى من الخطباء المحرضين الذين يطوفون الحارات الشعبية، والأسواق والبازارات والخانات، يتوقفون في باحات الجوامع، في المقاهي الصغيرة، حيث يقضي الدمشقيون ساعات في لعب الدومينو والنرد، أو يجلسون، بسيقانهم المتصالبة، على مقعد خشبي قديم، حالمين أمام النرجيلة أحلاماً لا نهاية لها.

هؤلاء الخطباء كانوا يبشرون بالحقد ضد الكافر، الأجنبي؛ أي الفرنسي في هذا الوقت، لأنه المعني بالقتال ضده، يفعلون ذلك مستشهدين ومستندين إلى مقاطع من القرآن الكريم المنطبقة على أحداث الساعة.

كل هذا العالم الصغير في الشارع. كل هذا العالم الصغير الحساس إلى درجة يهتاج ويُثار فيها بسهولة لمجرد تفكيره في الحرب المقدسة.

لكن هل نحن بحاجة إلى القول إن الاضطراب والهيجان هما، الأكثر تعقلاً، والأكثر رعباً أيضاً وهما المسيطران بين طلاب المدارس، وفي كليات الطب والحقوق، وبين المثقفين، في العديد من الحلقات

السياسية حيث يجتمع شعراء وكتاب وأطباء ومحامون للاستماع والتصفيق بحماس لأولئك الخطباء الذين يتمتع أكثرهم بموهبة كبيرة في الخطابة، وبفصاحة نارية تنتقل إلى المستمعين.

وصلت إلى دمشق مع هبوط الليل، وقبل بضع دقائق تقريباً من حلول الوقت الذي حدّدته السلطة العسكرية لإقفال البيوت كلّها، والتوقف التام عن الحركة والتنقل. أترككم للتفكير في الحالة التي كان عليها انطباعي الأول لحظة الوصول: تخيلوا ذلك الانطباع الذي يكابده مسافر يرى باريس خلال ليلة شتوية من ليالي الحرب.

لحسن الحظ، كنت مزوداً برخصة مرور دائمة ساعدتني على حرية التجوال في المدينة بالاتجاهات كلّها بعد أن حصلت على مكان في سيارة، مع جنديين مسلحين كانا قد صعدا إليها.

كان كل شارع في المدينة مسدوداً بشباك متحركة من الأسلاك الشائكة المتعرجة، ومحاطاً بحامية من تلال أكياس الرمل، وملاجئ، وبروج محشوة بالقنابل ومجهزة بالرشاشات.

كان هناك جندي من جنودنا على مسافة كل مئة متر، ومعه قناص جزائري، وفارس مغربي، وسنغاليون، دركي فرنسي أو سوري* يخرج من الظل ليشهر حربته مبرزاً إياها وصارخاً: "كلمة السر، وبمجرد أن يتلقى الكلمة ينقل الشبكة من مكانها من أجل فتح الطريق والسماح لنا بالمرور.

كانت السيارة تسير من جديد، تلقي مصابيحها حزمة من الضوء على مجموعة المنازل الصغيرة، وعلى مئذنة، وعين ماء، وأعمدة رومانية

* واحد ممن كانوا يسمون بالفوج السوري المتعاون مع الاحتلال الفرنسي .

سرعان ما تتلاشى كلها بعد هبوط الظلام. وكانت تنطلق من بعيد، وفي بعض الأحيان، عيارات نارية.

هكذا تعرفت على « لؤلؤة الشرق ».

في صباح الغد الباكر، أستيقظتُ على أصوات المدافع: رتل يسير باتجاه الشمال الشرقي كان ينظف منطقة مسكونة بالعصابات.

لم يكن شعب دمشق منزعجاً من صوت المدفع؛ تلك الآلة القاتلة، بصوتها الذي يزيد صدى الجبال من امتداده، ولم يكن أكثر اكتراثاً لجميع القطعات الدفاعية التي كانت تجوب الشوارع. كان التاجر في متجره ينتظر بسكون أن تأتيه النعمة من صاحب النعم، وكان تجار الفستق والحمص والخضار والزهور ينادون على سلعهم. أما مدخنو النرجيلة فقد جلسوا على المقاعد الخشبية في المقاهي وبدؤوا يحلمون، بينما زهر الدومينو يطقطق بصوته فوق طاولات الرخام.

في ساحات الجوامع يتجمع الرجال، يجلسون القرفصاء، ويشكلون حلقات حول معلم كان يلقي عليهم خطبته، ويقرأ عليهم صحيفته التي وصلت من القاهرة وهي تحمل أخبار انكسار الفرنسيين في المغرب، وأخبار ارتكابهم الفظائع التي يصعب وصفها، في سورية.

دعايات!.... دعايات!...

دعايات من جميع الأشكال تمارس هنا من دون هوادة، وفي الأوساط كلّها. تمارس هنا وبعيداً جداً عن مركز المدينة، في أحياء ذات أزقة ضيقة ومتعرجة، يعيش فيها الأمراء والباشوات والمشايخ برضا، منعزلين في بيوتهم المحصنة ذات الساحات المكشوفة، و الأبواب المصفحة والمخرَّمة بكوى ضيقة مسيَّجة.

هل يُفتح لكم باب واحد من هذه الأبواب كما فتح من أجلي؟

إنْ فُتِحَ فأنتم تدخلون في أجواء وزخارف ألف ليلة وليلة. يقودكم خصي أسود عبر ممرات طويلة ومعتمة مطلة على باحة داخلية واسعة مبلطة بالرخام المتعدد الألوان، ومنظمة كقطع رائعة من الموزاييك. في وسطها بركة من المرمر المنقوش كقطعة من الذهب المشغول، يغني الماء فيها من دون توقف.

تنتشر شجرات الليمون والبرتقال، وتلك النخلة الباسقة التي تمتد جذورها تحت الموزاييك الثمين، وتنشر ظلالها الورافة اللطيفة لتغطي صحن الدار الذي تنفتح عليه غرف المنزل.

تُقاد باتجاه واحد من تلك الغرف، المبلطة بالرخام مثل باحة الدار، والمغطاة كلها بالسجاد الفاخر، كما غُطيت الجدران والسقوف بالجلود المنقوشة والمحفورة بالذهب الموشى بألوانه الخامدة بفعل مرور الزمن.

تدخل الغرفة لتجد بعض الرجال الجالسين على أرائك رائعة التطريز وهم يدخنون ويشربون القهوة بفناجينهم الصغيرة. يقفون عند دخولكم لتحيتكم، ودعوتكم لأخذ أمكنتكم في حلقتهم؛ لتشاركوهم التدخين وشرب الشراب المعطر الذي يستهلكون منه كميات كبيرة.

يبدون وقد تجاوزت أعمارهم سن النضوج، بعضهم طاعن في السن. وبعضهم يرتدي السترة الطويلة والطربوش الأحمر، بينما يرتدي الآخرون القفطان الأسود والعمامة البيضاء أو الخضراء. أما الزي البدوي الصحراوي فقد بقي اثنان أو ثلاثة من الجلوس أوفياء له.

هذا الانطباع القوي الذي تشعرون به، يأتي ليدخل فجأة في إطار عامل ثقة لا لبس فيه، ما يلبث أن يتلاشى حين تكتشفون أنه، وبين

هؤلاء الرجال المختلفين والبعيدين عنكم لدرجة، يوجد بعض الشخصيات الأنيقة جداً ببذلاتها الغربية الطراز، وقد سمّرت نظراتها الملّحة على وجوهكم.

هؤلاء محامون، وأطباء، ووزراء قدماء للملك فيصل، كانوا قد أتمّوا دراستهم في أوروبة، وهم متمكنون جيداً من لغتنا، ويعرفون شخصياتنا السياسية، يقرؤون صحفنا ويفهمونها من أوائل كلماتها، وأوائل أسئلتها وقد كلفوا بالبقاء في هذه البيوت الأميرية للقيام بدور الخطباء المحرضين للموجودين في الأحياء الشعبية وقد سبق وتكلّمتُ عنهم.

لقد أخذ هؤلاء على عاتقهم مهمة تغذية تعصب الأمراء، والباشوات والمشايخ وتحريضهم على المقاومة، وجمع الإعانات المالية من الأغنياء منهم من أجل استخدامها في الدعاية وشراء السلاح.

علينا أن نجري المناقشات مع هؤلاء، آه! من تلك المناقشات المخيفة! كم هم رجعيون! وكما هو واضح في خطبهم، فهم يعرفون جيداً كيفية التعبير بصيغ ذات اعتبار واحترام أمام عصبة الأمم؛ تلك الصيغ التي سبق لقوات التحالف أن استخدمتها في الحرب العالمية: "الأسس القومية والوطنية، حق الشعوب في حكم نفسها"*!

ينبغي أن ندعهم يتكلمون، ونتعلم منهم أشياء مفيدة حقاً.

هذه القضية: القضية السورية، بشكل خاص. هذه القضية مثيرة وعسيرة على العرض لدرجة، وتتعقد أكثر فأكثر نتيجة تعاون المنظمات الإسلامية مع أعداء الانتداب.

---

* علينا أن نلاحظ السخرية الكامنة لدى المؤلف من شعارات عصبة الأمم

هؤلاء المتعصبون للإسلام يجرون، وعلى امتداد البلاد الإسلامية كلها، وراء حلم زعزعة الوصاية الأوروبية التي فرضت عليهم، ووراء حلم انتصار الفاتحين من أبنائهم الخائري القوى لكن غير المستسلمين، المحتفظين بوهم متابعة المسير نحو الغرب، واستعادة المساحات الواسعة التي احتلوها في الماضي، والممتدة من البحر الأدرياتي إلى القسطنطينية، وأجزاء أخرى من شمال أفريقيا مصر، طرابلس الغرب، تونس، الجزائر، المغرب، وحيث استقرت دول الوصاية بعد الحرب كإنكلترا وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا. لقد آمن هؤلاء المسلمون المتعصبون بفكرة العصيان المدني، الذي هو المقدمة لحركة التحرير الكبيرة.

وإذا كان المرء يستطيع أن يشك في التضامن الحاصل بين دمشق وأنقره وريفيي المغرب، والمصريين الوطنيين فقد كان يكفي، للاقتناع بوجود هذا التضامن أن نتأكد من أنه لا يوجد مقهى صغير، أو مخزن تجاري أو حرفي، أو منزل أميري إلاّ وزيَّن صدر بيته في إطار من الزخرفة أو التصوير الجميل، بصورة شخصية لمصطفى كمال[١٧] وسعد زغلول، وعبد الكريم الخطابي، ولكل أبطال الإسلام الذين واجهوا الغرب.

وطبيعي أن نرى هذا، لأننا هنا في مكان يستسلم فيه سكانه إلى لذة أحلامهم؛ إذ ليس من أمير، وشيخ، وجندي أو محامٍ أو صحفي إلاّ ويعتقد نفسه موعوداً بالثروة، وبنصر مصطفى كمال باشا!

لكن، ومع ذلك كله، فإن هؤلاء المروجين لفكرة الاتجاه الإسلامي ليسوا المؤثرين الوحيدين فيما يعترضنا من عقبات أو المسؤولين

---

١٧ مصطفى كمال الذي يمثل القومية الوطنية التركية . ومن المستغرب أن يُكَرَّمَ رسمه من قبل العربي بدلاً من أن يذكره بالنير التركي الذي تألم منه طويلاً

الوحيدين عنها. بل إن المحرضين على حركة التمرد كانوا قد انضموا إلى هذا الاتجاه الإسلامي، الذي انطلقت فكرته لاعتقادهم بأن هذا الاتجاه هو الحلقة الأولى من سلسلة الكفاح الكبير الذي يفكرون فيه.

فإذا ما استقبلتْ العناصر الوطنية السورية، والتي لم تزل بعد حدثاً جديداً يعود إلى المعتقدات الدينية كلّها، أتباع قضية أخرى غير قضيتها، فذلك لأنهم قادرون على تزويد حركة التمرد بمعونات مهمة، وتنظيم دعاية ذات شأن ومفيدة جداً إلى جانب القوى الشعبية وضد الأوروبيين بمن فيهم الفرنسيون.

لكنهم احتفظوا بكل حريتهم للعمل، ولم يتجهوا إلاّ نحو هدف وطني بحت هو: إعطاء الانتداب صيغة معاهدة، معاهدة إن عُقدَتْ بين فرنسة وسورية، فقد تُثبت، ولمدة ثلاثين عاماً، العلاقات والحقوق والواجبات المتبادلة بين الأمتين.

هذه المعاهدة مستوحاة من تلك المعاهدة التي عُقدَت بين بريطانيا العظمى والعراق[١٨]، وهي قد تحفظ لفرنسة النفوذ السياسي والأولوية الاقتصادية دون الإمساس أو الضرر الذي يلحق بالسيادة الوطنية السورية.

إنهم ينتظرون تحقيق الوحدة السورية، وإنشاء جيش وطني بطريقة تسمح لقطعات الجيش الفرنسي بإخلاء البلد تدريجيّاً والخروج منه،

---

١٨ بعد دراسة القضية السورية بوضوح تام، وبموضوعية وأمانة أكثر أمانة، فلقد كان السيد هنري ده جوفنيل الأول من بين المفوضين الساميين الفرنسيين الذين فهموا التوجه الذي كان ينبغي منحه للسياسة الفرنسية. لكنَّ إقامته القصيرة جداً في سورية (من تشرين الثاني ١٩٢٥ إلى أيار ١٩٢٦) لم تسمح له بأن ينفذ برنامجه الذي كان يقترب وبشكل حساس من ذلك الذي أشرنا تواً إليه. فهل قبلت وزارة الخارجية تصوراً حكيماً كهذا؟ وهل دُعي السيد بونسو لتحقيق ما كان سلفه قد حضرَّه جيداً؟

وقبول انتسابه إلى منظمة عصبة الأمم (S.D.N)، وكذلك حق التمثيل الخارجي المشابه لذلك التمثيل الممنوح للعراق.

هذا كله من أجل جعلنا نحترم مطالبهم التي يقاتلون من أجلها، ونقبل جميع أنواع التعاون، الذي يقدم لهم، ويقدم للإسلاميين وللجنة السورية ـ الفلسطينية، والمرتزقة التي أطلقها ضدنا: دروز سلطان الأطرش، وعرب قد جندتهم عصابات محترفة من قبل.

من المفيد أن نجد مكاناً لهؤلاء السوريين الذي يقبلون أن نكون حلفاءهم، ومستشاريهم، لكن لا يريدوننا أسياداً لهم. يجب ألاّ نخلط إطلاقاً بينهم وبين أصحاب الطموحات، والمغامرين والمتضورين جوعاً، والناس المستعدين لجميع أنواع الأعمال، والمتجمعين حول الأمير الجديد من القاهرة، الغريب الأطوار، والذي كانت وطنيته موضع شك بقدر ما كانت عليه أخلاقياته، والمعادين بشدة للانتداب، والذين هم، وبالتأكيد، قادرون على استخدام السلاح الأكثر خطورة ضدنا لأنهم يناضلون من أجل فكرة، الفكرة السورية، وإذا ما كانت بعض شعاراتهم متطرفة، وسيئة التسويغ، فأقل ما نعرفه هو الاعتراض على الشرعية من دون سوء نية مسبقة.

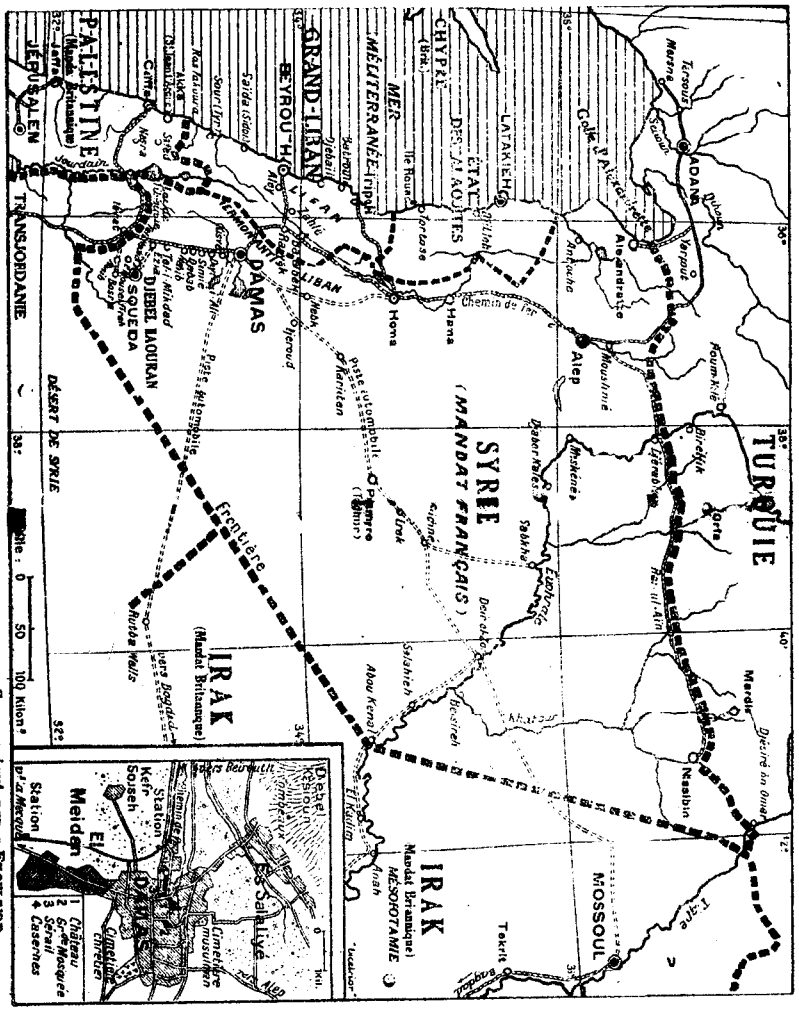

خارطة دول الشرق الموضوعة
تحت الانتداب الفرنسي

امتحان ضمير

ما هي واجبات السلطة الانتدابية وحقوقها ؟

وكيف ينبغي على هذه السلطة أن تتصور المهمة التي كلفها بها المجتمع الدولي؟

كان السيد أريستيد بريان يُصرِّح أمام مجلس النواب، في أثناء المناقشة المتعلقة بالحوادث الجارية في سورية، وعندما كان ساراي يُمَثِّل الجمهورية فيها، بقوله: إن الخبرة الوحيدة التي كانت تسمح بالإجابة على هذه الأسئلة، وإيجاد تعريف للانتداب هو الاعتراف بأننا مازلنا نبحث عن الصيغة القابلة لتثبيت تعريف الانتداب بعد ست سنوات من الإقامة في بلاد المشرق.

هو ذاك بالتأكيد ما يأخذه علينا السوريون.

إنهم شاهدون على ترددنا، تقلبنا، وهكذا يتساءل الكثيرون، بقلق: إلى أية طريق سنقودهم، حتى يبلغوا سن الرشد الوطني، والسياسي والإداري، ونحن الأوصياء عليهم رسمياً. وأكثر عدداً أيضاً هم الذين يعدوننا غير قادرين على القيام بهذه المهمة عندما يقومون بالامتحان النقدي لإدارتنا، وتقويم الحساب النهائي لأخطائنا وأغلاطنا؛ ذلك لأننا اقترفنا عدداً كبيراً من هذه الأخطاء أو من تلك، وربما يكون من المناسب المباشرة بامتحان ضمير.

بداية، لقد أخطأ عسكريونا وموظفونا بالنسبة إلى طبيعة الدور الموكل إليهم.

كان الانتداب مفهوماً جديداً، ومن أجل تطبيقه ومنحه الحياة، كان لا بدَّ من الإيمان بالمجتمع الدولي؛ أي أن يكون لدينا مفهوم " روح المعاهدة ".

إلا أن عسكرينا، الذين ربحوا لتوهم الحرب في فرنسة وفي الشرق كانوا، وإلى حد ما، منتشين بانتصاراتهم، كانوا قد مارسوا الاحتلال في ألمانية، سيدونيه، تراس، تركية. ولم يكونوا مؤمنين إلاّ بالقوة، وعصبة الأمم كانت تبدو لهم مؤسسة مضحكة إلى حدّ ما.

ومن الطبيعي في عالم كهذا أن يعدّوا البلاد الموضوعة تحت وصايتنا أقاليم محتلة. كانوا عسكريين جبارين قساة، وعندما حصلت القلاقل، اتخذوا تدابير قمعية عشوائية، حارقين وداكّين قرى غدا سكانها محرومين من سبل الحَيَاة ومن الملجأ، ولم يتبق لديهم من مصادرالحياة إلاّ الذهاب إلى صفوف المتمردين وزيادة عددهم. وكثير من موظفينا شاركوا في الإدارة الاستعمارية. بنيّة حسنة أيضاً، وتصوروا أنه كان مطلوباً منهم تطبيق الطرق نفسها (جيدّة كانت أم سيئة، وليس المكان هنا لمناقشة ذلك) التي كانوا قد استعملوها، خلال مدة خدمتهم، في ممتلكاتنا في ما وراء البحار، ومع شعوب كانت أقل تطوراً.

لقد مارس هؤلاء وآخرون السلطة في الوقت الذي كان الأمر يتعلق بممارسة وصاية.

لم يأبهوا بالطقوس والأعراف المحلية، وبخصوصية كل مجموعة سكانية، وبالحساسية الفردية أو الجمعية، متجاهلين أنَّ سورية هي بلد

قديم جداً، ذو ثقافة عميقة جداً، لقد تصرفوا، كما لو كانوا يتصرفون مع عبيد تقريباً.....

ماعز! معتمرو الطرابيش! كانت تلك هي الكلمات التي كانوا يستعملونها باعتياد للإشارة إلى السوريين، سواء كان ذلك بالنسبة إلى حمّال يعبر الشارع مع صندوق على ظهره، أم تاجر، أم مثقف، أم سيد كبير.

كنت ترى نقباء، ملازمين، موظفين صغاراً يفرضون على وجهاء سوريين القيام بأشياء خارجة عن الاحترام، في حين لم يفرض هذه الإهانات غير الشرعية جنرالات، ومحافظون، وسفراء.

كنت تشاهد هؤلاء النكرات أنفسهم ممن لا شأن لهم من ممثلي السلطة المنتدبة يستدعون إلى مكاتبهم مشايخ، وباشاوات، وأمراء، أو شخصيات بارزة، معتادة على البذخ والترف، مؤمنة بتسلسل المراتب، والمراسم، ويتركونهم وقوفاً، في حين، يظلون جالسين يعطونهم، وبنبرة تحكمية، أوامر، مرفقة، غالباً بضربات السياط على الطاولة.

كنت تشاهد... ما الذي كنت لا تشاهده في المدن الكبرى، وفي القرى وفي البلاد؟

لكن لمَ الإلحاح؟

مع وصول الفرنسيين، إلى سورية، ، كان كثير منهم يميل للتصرف كما لو أنهم كانوا في بلاد محتلة، في حين لم تكن الحال كذلك. وإذا كانت مثل هذه الأفعال والمواقف يمكن، كما يبدو، أن تُسَوَّغ بأنَّها من حقوق الفاتح، إلا أنها غير مقبولة على الإطلاق. بالإضافة إلى أنَّ غورو، الجندي الكبير، والشخصية الجميلة والنبيلة على كل حال، إلا أنه

لم يكن رجلاً مُعَدّاً أو مهيأ كما يجب ليؤدي دور المندوب السامي، الذي كان يتطلب كثيراً من الكفاءات المتنوعة، والتي لم نعتد أن نراها عند عسكري. هذا الرجل كان قد وصل إلى أرض بيروت بأفكار معدَّة مسبقاً.

فقد كانت له عقلية الصليبيين، وكان عليه أن يتذكر أغنية الملكة هورتنس، وحملة ١٨٦٠، وأن يتذكر الأبعد من ذلك؛ الشخصيات الحربية الإفرنجية، غود فرواه دو بويون، بودوان، بوهيموند، من قادة الصليبيين ممن كانوا قد سبقوه إلى هذه الأرض.

كانت سورية تمثل أمام عينيه أرضاً مسيحية. والمسلم فيها متطفل وغير مرغوب فيه. ولما لم يكن بالإمكان طرده، فقد كان يلزم، إن لم يُستطع إخضاعه، فعلى الأقل إذلاله وتفضيل المسيحي الصديق عليه، المحمي ونصير فرنسة لقرون خلت.

رغم المبدأ الذي يتلخّص في أن الوصي على الأيتام المكلف بالاهتمام بعدد من الأطفال ليس من حقه أن يفضل البعض على حساب الآخرين، لكنه من دون أن يدرك، أن المسيحيين المحترمين، والذين هم، بالتأكيد، أهل لعنايتنا، لا يشكلون في سورية إلاّ أقلية طفيفة، بينما المسلمون يشغلون البلد كله تقريباً [١٩]، وهذه المهمة، مهمة مناصرة المسيحيين، كان كثيرون قد طلبوا من غورو ممارستها.

وهكذا، انخرط غورو في حرب صليبية جديدة على طريقته حال وصوله، وتصرف بصدق تام، لم يخف إطلاقاً رايته ولا الاتجاه الذي كان

---

١٩ من عدد السكان العام البالغ ثلاثة ملايين، نحصي / ٧٠٠,٠٠٠ / مسيحياً (منهم ٣٠٠,٠٠٠ من الموارنة، وكلهم تقريباً متمركزون في لبنان.

ينوي منحه لسياسته بعد أنْ كان محاصراً برجال الدين الموارنة الذين تبدو لهم السياسة قضية كبيرة.

فقد صرّح في أثناء خطاب كان قد ألقاه يوماً في دمشق، أمام قبر صلاح الدين العظيم، الذي يجلّ ذكراه كل مسلم:

(حضوري هنا، يكرّس انتصار الصليب على الهلال)*.

آه: لهذا الطيش، وهذا الكلام المحزن!

أي خطأ ألحقه بنا هذا الكلام!

فمن دمشق المقدسة، سينتشر ذلك الكلام إلى أقصى بقعة من أراضي الإسلام.

لقد شعر مسلمو سورية ذلك بوصفه شتيمة وتحريضاً. فاستشاطوا غضباً.

وكانوا يقولون لقد بدّلنا بنير التركي المسلم، نير المسيحي المتعصّب. لم يكن هذا كل شيء بعد! فلقد نقل غورو الكلام إلى أفعال، ومن أجل أن يرضي، قساوستهم السياسيين، خلق دولة لأجلهم.

كان المسيحيون الموارنة حتى وصولنا قد عاشوا في منطقة جبلية وفقيرة، من لبنان، تقتصر على زراعة أشجار التوت، وتربية الماعز، أما وجود الأراضي القابلة للزراعة فقد كان نادراً.

كانت بلدهم حيث شاء لهم القدر أن يولدوا، وقد رضوا بذلك كما رضي ساكن المناطق الجافة عندنا بمنطقته. لكن ذلك لم يمنعهم من مغادرتها، أو من الهجرة إلى الخارج، وتحديداً إلى أمريكا الجنوبية، سعياً لاجتلاب الثروة نزولاً عند إغرائها.

---

* أو كما يذكر السوريون قوله: هاقد عدنا يا صلاح الدين.

عندما نزلنا من مراكبنا إلى مرفأ بيروت. كان اللبنانيون، الذين دافعنا عنهم في عام ١٨٦٠ [٢٠] ضد المسلمين، كانوا، خلال المحادثات من أجل معاهدة السلام، عازمين على أن تكون الوصاية على سورية عائدة إلينا، واعتقدوا أو أرادوا الاعتقاد، أننا نأتي إلى سورية، وبعد ستين سنة، لمتابعة عملنا في حمايتهم والدفاع عنهم. لأنهم كانوا تحت حمايتنا، وزبائننا؛ لذا كان من الواجب علينا تفضيلهم على بقية فئات الشعب الأخرى، وتهيئة مكانة مميزة لهم.

قرر غورو أن ينشئ لهم منطقة أكبر في جبل لبنان؛ لذلك كان منحازاً سلفاً لقضيتهم، فحسم الأمر. وضم لسنجق ١٨٦٠ أقضية حاصبيا، وراشيا، وبعلبك، والسهل الخصب للبقاع، وكل الأقاليم المسكونة بغالبية مسلمة، مثل مقاطعة طرابلس، وعكار في الشمال، والمقاطعة التي تعود لصور وصيدا في الجنوب قريباً من الحدود الفلسطينية حتى جزيرة أرواد، أي كامل الشاطئ السوري.

لقد أصبحت دمشق الآن معزولة عن البحر؛ دمشق التي لم تكن المقدسة فقط، بل كانت دمشق التجارية، والصناعية، دمشق المدينة الأكثر أهمية في سورية، والمفتاح إلى بغداد.

هكذا، وأمام هذا الكلام الصادر عن غورو، عند قبر صلاح الدين، وإضافة إلى الكثير من هذه الأمور كان الدمشقيون، بل كل المسلمين في سورية مذهولين.

لقد عمَّ تأثر الدروز، والمسيحيين، وعمَّ انفعالهم، هؤلاء الذين تمنوا

---

٢٠ كنا قد أنشأنا لهم سنجقاً مستقلاً، وكان ينبغي أن يكون حاكمهم مسيحياً، وأن تصادق القوى العظمى على تسميته، لمدة خمس سنوات وتتعهّد بحمايتهم.

قيام مملكة عربية وعدوا بها من قبل، وقبلوا ألاّ يكونوا إلا سوريين بعد تلاشي حلمهم الجميل، ولأنهم أرادوا ذلك معاً فقد تألموا من المساس بسيادتهم الوطنية من قبل الأجنبي الأوروبي بكثير من الوقاحة.

لقد ضمُّوا أصواتهم إلى أصوات المسلمين، وبدأوا العمل منذ ذلك اليوم، وتابعوه باستمرار متابعة لم تتوقّف من أجل الوحدة السورية.

لم يتوقف غورو عن التقسيم. بعد أن أعلن استقلال لبنان الكبير في (أيلول ١٩٢٠) عن سورية الكبرى، بل صنع تركيبة معقدة؛ إذ خلق دولة العلويين (عاصمتها اللاذقية)، ودولة جبل الدروز (عاصمتها السويداء)، ودولة دمشق، ودولة حلب، المعزولتين عن البحر! وهنا ينبغي الاعتراف بأن السوريين الذين ثاروا ضد هذا العمل غير العادل، لم يكونوا، مخطئين تماماً في ما فعلوه.

لماذا صنع غورو هذه الدول الفسيفسائية (من الرماد)؟ هل فعل هذا، كما يُزعم في المشرق؛ ليزيد دوائر الحكام، ومعاونيهم، والمفوضين والموظفين من الفئات كلها. هل فعل هذا ليزيد من أبهة معاونيه العسكريين والمدنيين بخلق وظائف مدرّة بسخاء عليهم منتزعة من الميزانية المحلية؟ لن أتوقف عند هذه الفكرة. لقد كان غورو أميناً، صادقاً. وإذا كان قد قسمَّ البلد فلظنه بأنَّه، بهذا التقسيم، كان يستطيع أن يحكم البلد بطريقة أفضل*.

ولكن للأسف! ففي هذا البلد، حيث كل الأشياء معقدة، وصعبة،

---

* يعتقد بأن غورو الحالم بدور فارس صليبي أراد بفعلته هذه استعادة الجغرافية الصليبية في أثناء الحروب الصليبية ، فالدول التي صنعها هي نسخة أخرى عن الإمارات الموجودة في أثناء الحروب الصليبية على جانبي الحرب ، الإسلامية والفرنجية .

تصوراتٌ وتركيبات (ربما كانت ممتازة في مكان آخر)، أوجدها غورو ولم يكن من الممكن استيرادها إلى سورية. لأنه بهذا التقسيم، جلب ضرراً خطيراً للشعور الوطني للعناصر السورية الأكثر تطوراً، والأكثر جدية، والتي كان من الممكن أن يحصل منها على مساعدات قيمة للانتداب بدل أن يخلق منها أعداء له، ولا يمكن أن يكون السوريون إلا معادين له، لأنه يمهد لعمله الوصائي بتقطيع بلدهم وتجزئته، من دون سبب معقول أو مفهوم.

من جهة أخرى، كان يخلق خصوصية جديدة، مشجعاً الدسائس المحلية، بإعطائه المجموعات العرقية أو الدينية الصغيرة طموحاً شاذاً بأن تكون دولاً، وأن تحصل على مجلس استشاري، وعَلَم، وطابع بريد.

مناطق بائسة خارج المدن حلمت بأن تكون عواصم، وبعض موظفينا الصغار- يا الهي وهذا إنساني جداً-! تمنوا أن يرتقوا ويصبحوا حكاماً كغيرهم، فذهبوا إلى إثارة بعض الحركات الاستقلالية بشكل مصطنع.

لعلكم لم تنسوا ريكلوس حلب الذي أراد أن يكون ملكاً!

لقد صنع غورو من سورية مقدونيا، مقدونيا مخططة بحدود عشوائية، كان، هو ومن جاء بعده يضاعفون تلك الحركات الاستقلالية، أو يبطلونها، مطمئنين إلى إيحائهم الشخصي أو مطيعين لاقتراحات كانوا يتلقونها[٢١].

---

٢١ في سنوات ست، عرفت سورية جميع المغامرات الإقليمية. فقد كانت مقسمة، ثم متآلفة بفدراليات، ثم مقطعة مرة أخرى. وما إن أعلن اتحاد دولتي دمشق وحلب (في ١ كانون الثاني ١٩٢٥) حتى نشبت الحركات الانفصالية الوهمية في حلب. ويمكن تقريب ذلك من الحركة الانفصالية الوهمية لإسكندرون. بعد أن طلبت استقلالها في آذار ١٩٢٦، وكان السنجق قد طلب في شهر حزيران من السنة نفسها إعادة ارتباطه بسورية دمشق.

وأمام هذا التفكك، جُنَّ جنون السوريين.

* * *

هذه التجزئة المباغتة، لاسيما خلق دولة لبنان الكبير، كانت من الأسباب الأكثر أهمية وخطورة في النزاع الذي قام بين السلطة المنتدبة ورعاياها القاصرين من السوريين!!!!

كان يمكن لهذا النزاع أنْ ينتهي في حالة واحدة فقط، تحدد بتسوّية الظلم الواقع بسبب التقسيم. عندئذ سيتوقف السوريون عن التضامن مع أعدائنا في الخارج؛ أعدائنا الحقيقيين، شرط أن نعطي بلادهم فتحة على البحر، وأن نعيد لهم المقاطعات التي لن يستطيعوا العيش من دونها.

هل يمكننا إرضاءهم؟

مع الأسف! الأمور ليست بهذه السهولة.

أما المسيحيون فهم يؤمنون بأن حصولهم على الشيء يساوي ملكيته؛ لذا لن يتساهلوا بدورهم، وسيصرخون لتعرضهم للنهب، وقد يحرضون العالم، ولقد بدأوا بذلك فعلاً.

نعم نعم! إنهم يفهمون جيداً، رغم الحماس الذي يحركهم، بأنَّهم كانوا مفضَّلين حتى لو تجاوزنا الإنصاف، وأن كل فرنسي ذي نيّة حسنة دَرَسَ القضية السورية بشكل موضوعي، سيصل حتماً إلى التصور بأن هذه القضية يمكن حلّها عندما تتحقق الوحدة السورية فقط.

ولا يجهلون أنَّنا، في أثناء المفاوضات التي عقدها ممثلونا الرسميون مع رجال السياسة السوريين، أنَّه كان هناك دائماً، وقبل كل شيء، موضوع هذه الاحتمالات، وهذه التغيرات الإقليمية التي لا يستغنى عنها.

يجب قراءة صحفهم، إنْ أمكن، لإيجاد أرضية تفاهم بين الفرقاء، وعند التدخل بمحادثة من هذا النوع نستطيع أنْ نشعر بأية قوة، ونبرة يعبرون عن أفكارهم! كما نشعر بمدى السلطة والقوة التي يخطرون من خلالها المفوض السامي بأن يعلن علناً عدم المساس بحدود لبنان الكبير.

يثور كهنتهم المحليون، ويصرخون معلنين هذه التحذيرات، ومضاعفين المساعي، بالكتابة إلى أصدقائهم في الغرب، وإلى البطرك الماروني الجليل، غبطة المونسنيور حويك، وهو، في مقره الجبلي، جاهز لإلقاء اللعنة والحرمان عند الحاجة.

كان البطرك يردد: " هذا الانتداب إما أنْ يستند إلى الطائفة المارونية وإما لا يكون ". بصوت يصل صداه إلى باريس. أما ممثل فرنسة فيتلقى الأمر الإلزامي الذي لا يقبل الجدل بألا تكون حدود لبنان الكبير موضوع جدل. عند ذلك يشعر المسيحيون الموارنة؛ أي الأقلية، بالرضا. بينما تستمر الأغلبية السورية في المعاناة من الوضع، ومن ظلم صنعناه نحن الفرنسيين، لا أحد يستطيع القول بماذا أفادنا ذلك. والكفاح يستمر ضدنا!.

رغم ذلك، لم يكن من الصعب علينا أن نربح صداقتهم، ولم يكن يلزم، من أجل ذلك، إلاّ أن نظهر لهم العطف والتصرف ببراعة ما، لأنهم كانوا ما يزالون يجدون أنفسهم تحت تأثير خيبة أمل مُرّة قد سببها التقسيم، من قبل الحلفاء، لمقاطعات منفصلة عن الإمبراطورية العثمانية.

كنا نستطيع أن نمنحهم أملاً جديداً: هو أن تصبح سورية في يوم ما ثمرة لجهودهم؛ ذلك لأن في المخطط الذي كان الانكليز يحاولون تحقيقه في مكّة تحولاً لصالحنا.

إنَّ واقع قبولنا احتلال دمشق. المقدسة، الرائعة، يقدم لنا مشروع إحداث جامعة، في هذه المدينة تحت كنفنا ويجعله هدفاً سهل التحقيق، هذه الجامعة كانت ستضاهي الأزهر، وستصبح المركز الذي يتجمع بين جدرانه الفكر العربي تحت إشرافنا.

لم نفهم الفائدة التي كنا نستطيع استخلاصها من هذه الحالة، ولماذا كان علينا أن نفهم؟ أفلم يكرس وجودنا في سورية نصر الصليب على الهلال؟

* * *

وها نحن بتجزئتنا للبلد الخاضع لعنايتنا، ولمنح الأجمل لمن ربيَّنا، والذين كنا نحملهم في قلوبنا بشكل خاص، ترتب علينا أن نقدم هبات أخرى أيضاً؛ هبات بملك كانوا ينازعوننا حق التصرف به ولكن وفق رغبتنا. - من ذلك تخلينا لتركية عن كيليكية بواسطة معاهدة أنقرة. تخلياً لم يعنِ فقط التخلّي عن مقاطعة تعدّ بالنسبة إلى السوريين جزءاً من تراثهم الوطني، بل يعني التخلّي عن أرض واسعة شديدة الخصوبة لزراعة القمح.

ليس هذا المكان مناسباً لمناقشة معاهدة أنقرة من وجهة نظر فرنسية. أما من وجهة نظر سورية؟ ألم تكن قد شكلت بالنسبة إلينا - وعلى الأقل - عملاً جسوراً ؟

فعلاوة على سلخ جزء من سورية، ووضع حلب، وبشكل خاص اسكندرون[٢٢]، بمجاورة الحدود التركية، ووصل هذه الحدود بطريق سكة حديد المسيلمية، جرابلس، نصيبين، الأمر شكل عقبة خطيرة،

---

٢٢ الوطنيون الأتراك يطالبون بالإسكندرون وإنطاكية .

استراتيجياً، فإن لمعاهدة أنقرة تبعات أخرى هي إدخال آلاف العائلات الأرمنية الهاربة إلى سورية، وتحت حمايتنا، وإنقاذهم من أعدائهم الذين كادوا أن يذبحوهم.

* * *

إنه لأمر حسّاس أن نتكلم على الأرمن. فهم مسيحيون، وكانوا ضحايا اضطهادات فظيعة، وهذان سببان يجعلانهم محببين إلى فرنسيي فرنسة.

لكن الذي يعرف الشرق لا يجهل أسباب هذا الاضطهاد كما لا يجهل بأية سعادة تصبح هذه الضحايا سفّاحة، عندما تستطيع ذلك.

إنه حقد شنيع؛ حقد لا يخمد، حقد يضع الأرمني في مواجهة الآخر المسلم. فاجتياح إقليم يسكنه المسلمون، ومن قبل شعب يكرهونهم أثار انفعالاً هائلاً. لقد اتهمونا بأننا اجتذبنا إلى سورية الأرمني، الذي سنجعله يؤدي دوراً ضد العربي، هو الدور نفسه الذي أداه الصهيوني في فلسطين[٢٣]. طارداً العناصر الأصلية وحالّاً محلها.

من ثم، وحسب الأمثلة السابقة، يمكن لنا تخمين ما كان سيحدث. ما إن استقر هؤلاء الأرمن، أبناء العرق الذي لا تهمه زراعة الأرض، أو الرعي، أو الأعمال المنتجة، والذي هو، جدير بالحياة والتوالد، والاغتناء على الأرض الغريبة حتى إلتحق، بحلب، وبيروت، ودمشق.

---

٢٣ حمل الصهاينة إلى فلسطين ملايينهم، ونشاطاتهم، واشتغلوا فيها بالأرض، ونمّوا الغابات، والحبوب، والأشجار المثمرة، والكرمة، أما الأرمن فلم يحملوا إلى سورية سوى فقرهم وشهياتهم.

* وهذا هو رأي المؤلف الذي لم يستطع تخمين الشر الهائل الذي حمله قدوم اليهود إلى فلسطين التي لم تكن جرداء، ولم تكن مستنقعات كما يزعم قبل قدوم الصهاينة كما في ص١٦٦.

لقد بنوا بأيديهم معارض فقيرة للبيع أصبحت محلات تجارية، وقد عرضوا على ركبهم، وعلى أبواب المقاهي مكاتب صرف ستصبح، قريباً، بنوكاً، واشتغلوا بالحرف اليدوية، والتجارة المحلية بمنافسة مخيفة...، وهاهم هنا في حلب، مُلاّك لقسم من المدينة ومختالون فيها.

إذا ما أضفنا إلى ذلك أنَّ العديد منهم كانوا موظفين بوصفهم مساعدين في جيشنا، وأنَّهم في بعض العمليات القامعة للعرب تصرفوا كشوار مقدونيين* أكثر مما تصرفوا بوصفهم جنوداً، من دون شك ستفهمون أن السوريين يعترفون لنا بقليل من الجميل لأننا أسكنَّا في بلادهم هذا العنصر الذي يعدّونه غير مرغوب فيه، فهل تقدرون بعد ذلك كلّه أنه سيكون من الصعب علينا أن نتجنّب المذابح؟

أوه ! بالتأكيد، لم نكن نستطيع رفض دخول هذه العائلات التي كان من الممكن لتركية أن تبيدها، لكن كان يجب علينا أن تكون لدينا سياسة ما تسهم في تنمية البلد عوضاً عن أن تشكل عبئاً ثقيلاً عليه.

ولم يكن يحدث ذلك في المدن المكتظة بالسكان فقط والتي كانت تعاني من أزمة اقتصادية خانقة؛ لأن المنافسة كانت حادة بين التجار الذين كان من الضروري إقامة الأرمن بينهم، بل كان ذلك أيضاً في القرى، التي كانت تنقصها اليد العاملة.

كان الشعب الأرمني يفضل الأعمال التجارية، الصرافة، والعمل المصرفي، والحرف اليدوية البسيطة في المدن، وكلَّ أنواع النشاطات التي تمدهه بربح أسرع، وقيمة أعلى، وأكثر حظاً في النجاح، وكان يفضل ذلك كله على المقايضة والعمل في الأرض.

---

* أي شرسين في قتالهم غير المنضبط .

هذا الشعب، المدفوع بالحاجة، والطامع ببعض المنافع التي قدمت له، كان قد أصبح مزارعاً وراعياً. في وضع يشبه ما حدث في فلسطين التي استفادت من الوجود الصهيوني؛ وبذلك استفادت سورية من الأرمني بدلاً من أن تعاني منه.

فكّرت الحكومة مرة، في أن تعطي الشعب المذكور فرصة؛ ليصبح مفيداً للبلد الذي التجأ إليه. كان يوجد في الإسكندرون مستنقعات واسعة، فقيل لبعض العائلات " جففوا هذه المستنقعات. وستكون الأرض التي تجففونها ملكاً لكم. وتستطيعون أن تقيموا فيها بيوتكم ".

قام المهاجرون بالعمل المطلوب. لكن وبعد فترة قصيرة، ألغي القرار الذي منحهم ملكية الأراضي التي ربحوها. فانقطعوا عن العمل وذهبوا للانضمام إلى إخوانهم في المدن.

لم نكن نحسن امتلاك سياسة للأرمن، ولا سياسة للماعز.

كانت هذه (كما كانت تلك وكما يقول الكارهون للأرمن) تشكل كارثة حقيقية للبنان، الذي كان في السابق غنياً جداً بالغابات التي اجتاحها الاتراك كلها خلال الحرب. لذا كانت إعادة التشجير ضرورة ملحة يعرفها سكانه المترفون أنفسهم، وهم مستعدون للتضحية في أمكنة عديدة، لذا زرعوا فيها الصنوبر، والسنديان. لكن العنزة، العنزة الظريفة المزاجية، والتي تتنقل من مكان إلى مكان، حتّى على الهضاب الصخرية، كانت تقضم النباتات الصغيرة وتدمر المزروعات.

ومن أجل منعها من الاستمرار في أضرارها، حدد "ويغاند" المراعي التي كان يسمح بقيادة القطعان للرعي فيها، لكنه تلقى كثيراً من الاحتجاجات من قبل مالكي الماعز، الذين كانوا يتذرعون بمبادئ ولسون،

وبسلطة هيئة الأمم، وماذا أعرف أيضاً؟ لقد اعترضوا على هذا التعدي على الحرية الشخصية، التي ينبغي أن تعيد امتيازات العنزة Amalthée*

سيبقى لبنان عارياً من الشجر، كأطراف الإسكندرون التي ستبقى مستنقعاً.

* * *

أي تظلم سيتلفظ به السوريون ضدنا ؟

والأخطر من ذلك كلّه هو ما يتهموننا به بأننا تسببنا في افلاسهم. لقد كانوا يتداولون الليرة العثمانية الورقية، وخصوصاً الليرة التركية الذهبية والليرة المصرية قبل وصولنا، لكننا قررنا إصدار القرش السوري الذي جعلناه مساوياً للفرنك الفرنسي والذي كان عليه أن يجاريه[٢٤].

وإذا ما أردنا معرفة الإجحاف الذي ألحقناه بالبلد بإيجاد القرش الذي كنا قد أعطيناه السعر الرسمي والتحريري، فيكفي أن نتذكر ماذا

---

* Amalthée: العنزة التي كانت تغذي زيوس (Zeus) والتي غدا أحد قرنيها فيما بعد قرن الخصب المعروف . (المترجم)

٢٤ القانون الصادر في ٢١ كانون الثاني ١٩٢١ ، الذي قرر بموجبه السيد روبرت دو كيه صدور العملة السورية والذي يتضمن بالتحديد مادتين :

مادة ٢- كل دين ، عملة ورقية ، سند تجاري ، وديعة من أي نوع سابقة ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٨ مشترطة الدفع بعملة أجنبية أو بنقود معدنية أجنبية ، تسدد بعملة ، لها بموجب قانون الدولة التي أصدرتها ، سعر قانوني ومحرر بداخل حدودها الإقليمية .

مادة ٣- كل دين ، قطعة ورقية ، سند تجاري ، رصيد من أي نوع سابق ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٨ ، مشترط الدفع بالليرات التركية الورقية والنقدية ستستبدل بعملة سورية بقيمة دولار وخمسين سنتاً بسعر يوم صدور تاريخ القرار الحالي ، أي / ١١٢ / قرش سوري / ٥٠ / بالليرة التركية المنوه عنها .

مُنِحَ إذن لكل / ١١٢,٥٠ / قرشاً سورياً ، يعني / ٢٢ / فرنكاً وعشر تماماً من عملتنا ، قيمة ليرة تركية ذهبية . بعد تخفيض عملتنا هذه يصبح سعرها اليوم / ١٣٥ / فرنكاً .

كان يساوي الفرنك بالنسبة إلى الدولار في ٢١ كانون الثاني ١٩٢١، وماذا أصبح عليه بعد ذلك..

من دونكم، يقول السوريون، كنا مانزال نستعمل الليرة التركية الذهبية والليرة المصرية، ولكنّا عندئذ أغنياء. لقد جعلتم منّا فقراء. فبم نجيبهم؟

يضيفون:

- كنا نمتلك في خزينة المصارف عملات سليمة أصبحت، بين يوم وآخر، وبأمر منكم، مستبدلة بعملة كان عليها أن تضعف في آن واحد مع عملتكم. كيف لا نتهمكم بأنكم لم ترتبوا هذا التحول لصالحكم، من أجل نهب نقدنا الذهبي، ليراتنا، دولاراتنا التي كانت خزينتكم بحاجة ملحة إليها؟

إنَّ السبيل لإفهام هؤلاء المتذمرين هو، إذا كانت بعض البنوك قد استفادت في الحقيقة من العملة، فالدولة الفرنسية لم تجد في ذلك أية منفعة.

يقول السوريون أيضاً:

" ماذا فعلتم من أجل إنعاش اقتصاد البلد؟ لا شيء أو قليلاً من الأشياء! أين هي عملياتكم الكبيرة في سبيل مصلحة الشعب؟ إننا نبحث عنها دون جدوى. ينقصنا طرق، مرافئ، سكك حديدية[٢٥]، وآلاف من البيوت في مدننا بحاجة لإعادة البناء...

آه! كم كان عليكم أن تباشروا بأعمال جميلة! وافتتاح حقول عمل

---

٢٥ يكفي أن نربط طرابلس بحيفا ، أي أن نقيم طريق سكة حديد من / ٢٠٠ / كيلومتر من أجل أن يكون الذهاب ممكناً من باريس إلى القاهرة وضمن مقطورات للنوم

مهمة. كان من الممكن أن تقدم مزايا أخرى، وأن تمنع ثورة الأنصار التي جُنِّد الكثير منهم ممن كانوا عاطلين عن العمل، فذهبوا إلى الحرب؛ لأنها تطعم عائلاتهم ".

نعم، كان هذا البلد وسيبقى، من أجل تجارتنا، وصناعتنا، ومشروعات مجتمعاتنا المستقبليّة، حقلاً ممتازاً للعمل، كما كان يقدّم إمكانيات أخرى أيضاً. فهو بلد له نيله. وهو الفرات.

من جرابلس إلى أبو كمال، من الحدود الأناضولية إلى الحدود العراقية، أكثر من خمسمائة كيلو متر، كان هذا النهر الضخم، يدحرج أمواجه عبر سورية.

كان ينبغي أن نعمل له ما فعلناه سابقاً من أجل النيل؛ أن نقيم له سداً، أن نقطع جريانه بسدود، أن نوزع المياه على الضفاف، ونجعلها تجري في أقنية عديدة في السهل! ولكان ما نسميه نحن اليوم بالصحراء التي، هي في الواقع أرض فقيرة بالحياة بسبب الجفاف، كانت ستنشط، تغدو جنة عدن، وكانت الأشجار المثمرة تنمو وتزدهر فيها كما كانت حدائق دمشق وصيدا الأسطورية. وكانت الحبوب ستصبح أكثر منافسة وأكثر جمالاً، وكانت نوعية القطن ستكون أعلى قيمة من تلك التي تنتجها مصر.

وكانت المياه نفسها ستمد سورية كلها ولبنان بالطاقة والكهرباء، وعند الحاجة ربما مدت البلاد المجاورة بهما.

نظرة طوباوية؟ حلم! لا. يقين. يقين متفق عليه من قبل كل المهندسين الزراعيين، الذين ذهبوا حتى الفرات، ورأوه يحمل الكمية

الكبيرة من المياه المتجهة نحو البحر[٢٦] ، والتي أعطت خيراتها نتائج تجاوزت الأمل الأكثر تفاؤلاً*.

* * *

لم نكن نمتلك سياسة تجاه الأرمن، ولا تجاه الماعز، ولا تجاه الفرات. يعني لا أشجار مثمرة، ولا قطن، ولا ماشية. بوصفها مسألة خطيرة جداً في سورية، وتستحق أن نتوقف عندها.

كانت قبيلة البدو تطوف الفضاءات الواسعة من دون توقف، باحثة عن الكلأ من أجل قطعانها، ولكن هل كانت هذه الأرض التي لا تعود ملكيتها لأحد عقيمة؟

كانوا يدفعون الحيوانات إلى الأراضي المزروعة، فتخرب المحاصيل، وينتج عن ذلك مشاجرات ومعارك لا بدَّ لها من أن تقع مع تغيرات كل فصل.

وكان جزء من جيشنا منشغلاً بإعادة النظام بين سكان المدن والبدو الرحل.

أما المشروع المتعلق بإعادة تهيئة نهر الفرات فكان يرصد إقامة مراع حيث يستطيع أن ينزل فيها الراعي بخرافه، ويهجر هذه الحياة التائهة، التي، كانت لها، جاذبية حسبما يرى بلا شك، لكنه كان سيتخلى عنها في اليوم الذي سيفهم فيه أنه سيقلل من جهده ويزيد

---

٢٦ م٢ في الأربع والعشرين ساعة في فترة فيضان عادية . وسدٌّ مقام في أعالي مسكنه ، والذي لا يشكل بناؤه أية صعوبة ، كان سيسمح بإقامة محطة هيدروليكية - كهربائية من C.V. ٥٠,٠٠٠

*هذا المشروع تم إنجازه بعد ثلاثين سنة ونيف من الاستقلال أي سد الفرات

منافعه باستقراره فيها؛ لأن قطيعه، الذي يضيّع نصف اليوم في عرض الصحراء، سيصبح فيما بعد أكثر عدداً.

سيكون الفرات قد منح سورية هبات لا تقدر بثمن، وفوق ذلك سيكون قد ألغى، وعلى مساحات واسعة من الأراضي، سبباً للقلاقل بين البدو والفلاحين.

* * *

السوري يحب الربح مثل المصري، وربما أكثر، وهو وإن كان يحب السياسة حتى الإسراف أو الجنون كما يحب المؤامرات والاضطراب، فذلك وفي جزء منه؛ لأنه عاطل عن العمل وفقير، بينما بلده المروّية بالنهر الضخم ستأخذ مظهر الدلتا المصرية بعد إقامة مشاريع الري المطلوبة. والسوري المغمور بالعطاء والثروة سينسى قريباً الأحلام التي يرتاح فيها، والتي تثير أعصابه وتهيجه وتفقره.

وإذا كان الفرنسيون هم الذين جعلوا من السوري، بواسطة صناعتهم، مساوياً لابن عمه في القاهرة أو الإسكندرية، حتى لو كان بطبيعته مجبولاً على قلة الميل للعرفان بالجميل، فإنه ربما كان سيحفظ لنا معالم هذا الجميل، وربما كان قد سُمِحَ لنا، بأن نأخذ جزءاً من الثروة التي كنا قد صنعناها في بلده، لقاء استعادة المليارات التي أنفقناها.

لكن، يجب أن يسود الأمن والهدوء سورية، حتى نتمكن من وضعها في حالة عمل.

فهل نحن قادرون على تدشين سياسة تسمح بالحصول على هذه النتيجة؟

وهل نريدها حقاً؟

هل يترتب علينا المغادرة، أم البقاء؟

قد يكون من العبث، من السخف أن ننكر هذا:

بعد ست سنوات من الوصاية، لم ننجح في سورية، ولم نستطع أنْ نصل إلى أن نجعلهم يخافوننا - وهذه وسيلة للحكم - أو إلى أن نجعلهم يحبوننا - وهو الأفضل - وإلى أن نربح احترام من هم تحت وصايتنا، وفقدنا تجاههم أمانيات كثيرة.

خيبّنا آمالهم. و دفعونا إلى الملل.

حصيلة كئيبة!

نحن حملنا العبء الذي يرتكز على مساعدة السوريين، وتقديم المشورة لهم، ومرافقتهم حتى بلوغهم سن الرشد أمام المجتمع الدولي. فهل كان ذلك سهلاً؟

بالتأكيد لا. في بلد الأفخاخ والمكائد، الذي، كان أبناؤه بقدر ما هم مشاغبون، مُقسَّمون، كانوا مأخوذين بالنقاش والهياج أكثر من السعادة. في هذا البلد حيث تولد وتنمو طموحات كثيرة، كانت الأحزاب تتجزأ كالأديان من دون انقطاع؛ لتعود وتبني نفسها من جديد تحت صيغ أخرى، وحيث أخيراً، كان الحكيم والعادل، والطيب يصطدم بسوء فهم الرجال، ولا يُعوَّض عن ذلك إلا بالنكران - وهذا معروف بحكم التجربة

منذ قرون. في كل مهمة صعبة، خصوصاً عندما تكون من طبيعة المهمة التي واجهتنا.

أوه! لو كانت أمة غيرنا، وُجِدَت في مكاننا، لكانت من دون شك عرفت الهموم نفسها، وأثارت الاستياءات نفسها، وأعطت للشعب الدوافع نفسها أو الذرائع نفسها لكي يتذمر؛ لأنه لا يمكن تصور السوريين وقد أظهروا رضاهم عن القانون المفروض عليهم وعن أولئك الذين يطبقونه.

حتّى لو كانت هذه القوة مقاومة من الداخل والخارج من قبل الرجال أنفسهم، ومن قبل المنظمات نفسها التي نراها اليوم قائمة أمامنا، فإنَّ هذه الملاحظة لا يمكنها إلا أن تعزينا - ولو بشكل ضعيف جداً - عن خيباتنا في إتمام رسالتنا، التي، وإن لم تحمل لنا شيئاً - فلقد كلفتنا أموالاً طائلة، وحيوات إنسانية كثيرة، ونفوذاً كبيراً.

أحد رؤساء المجلس القدماء، الذي تعرض شهادته ما يدور في المشرق بشكل حقيقي، كان يصرخ قائلاً، وقد أخذ رأسه المثقل بالعلم بين يديه:

آه! لو نستطيع الانسحاب من سورية خفية وعلى أصابع أقدامنا، دون أن يدري أحد بذلك!...

هذا الوزير كان يعبّر، وبجلسة خاصة عن رأي كثير من الفرنسيين، وربما حتى عن رأي الأكثرية منهم.

وهكذا، فسياسة التخلي، أو التنحي هذه، لا يمكن لكرامتنا أن تقبل بها.

كيف ستكون حالتنا في المتوسط، وعلى طريق الهند إذا ما هجرنا سورية قبل أن نكون قد وقعّنا معها بعض المعاهدات، والاتفاقات؟

زد على ذلك أنَّا، بإبحارنا منسحبين ثانية سنكون قد اعترفنا بإخفاقنا، وبعجزنا، ولكنَّا حطمنا نفوذنا في الشرق الأوسط. بالضربة نفسها، ولكنَّا زدنا من نفوذ انكلترة وإيطالية اللتين ما كان لينقصهما، يوم نكون فيه قد تخلينا عن انتدابنا، إلا أن تتقدما أمام عصبة الأمم من أجل قطف ثمار تركتنا.

غير أن انكلترة مقيمة في جبل طارق، وقبرص، ومالطة، والإسكندرية، وقناة السويس، وبلاد ما بين النهرين، و فلسطين، والعراق.

وإيطالية، ذات الشهية القوية، التي تتوقع جيداً أن يُوضع نظام جزر Dadécanes (الداديكانس) تحت إدارتها، ستقوم بنشاط دعائي مؤثر، على كامل الأراضي الموضوعة تحت انتدابنا، وعلينا أن لا ننسى أن إيطالية هذه مازالت تطمع بأزمير.

لكنَّا إذا ما أردنا البقاء، فإنَّه يجب علينا، أن نعترف بأخطائنا بحب، وحسن نية، وأن نُصلِحَ منها ما يمكن إصلاحه.

وحتّى هاهنا، وقد مارسنا سياسة محاباة الأقلية، فحملت إلينا الثورة، والحرب. فلننفتح أمام سياسة الأكثرية، السياسة الإسلامية. بهذا الثمن، وبهذا الثمن فقط، نعيد بناء السلام، ونستعيد في الوقت نفسه نفوذنا الضائع.

بالتأكيد، ليس من مجال لإنكار تقاليدنا في الشرق، ولا يمكن أن نكون بالنسبة إلى المسيحي إلاَّ الصديق الذي كنا له دائماً ولعدة قرون[٢٧]،

---

٢٧ كيف نستطيع أن ننسى العمل الرائع لراهباتنا ولرهباننا ، العازاريين ، بشكل خاص الذين ، على حساب الراحة الكبيرة ، والتفاني وإنكار الذات ، والذين لن نستطيع إحياء فضائلهم بشكل كاف ، نشروا لغتنا في كل أنحاء البحر المتوسط .

لكن إذا ما استمر هذا الاستخفاف بالاهتمام به، فلا شيء يبرر المنح التي غمرناه بها من دون تفكير، فنحن من أجل إرضاء غروره فقط، ضممنا لإرثه الأراضي المنزوعة من إرث الآخرين.

قد لا يكون مزعجاً أن نعطي للملكيته حدوداً معقولة، رافعين بهذا ظلماً نتحمل مسؤوليته، وكان هو الأساس في مصائبنا.

هذا الإجراء العادل جداً، والذي سيكون توجهاً نحو الوحدة السورية، التي نطلبها بكل قوة، قد يهدئ النفوس، وقد يعيد إلينا عناصر البلد الجدّية والسليمة. بدلاً من الاستمرار في التحاور مع محترفي التآمر والتحريض، مع المغامرين، والطامعين ومع كل أعدائنا في الخارج، الذين أصبحوا، وبشكل مصطنع مدفوعين بالخيبة، ضعيفي الولاء، هؤلاء أنفسهم قد يلتحمون معنا ويعملون إلى جانبنا من أجل مصلحة سورية.

قد يثور المسيحيون اللبنانيون، ورعاتهم من السياسيين، بشكل خاص، وقد ينبغي أن نتركهم يحتجون، ولكن من أجل إنقاذ المفوضية العليا من اتهاماتهم، وتأثيرهم، ودسائسهم، يجب نقل المقر السياسي الفرنسي من بيروت إلى دمشق، إلى قلب سورية بالذات، لأن بيروت تخفي لبنان ولبنان يخفي سورية.

إن كنا قد تعرضنا لعدد كبير من الإخفاقات في هذا البلد، فذلك لأننا لم نفهمه، ولأننا لم نسمع صوته إطلاقاً، ولم نلتقط نبضات قلبه ودمه. ولن نتوصل إلى ذلك إلاّ في دمشق، وبإعادة الأقضية والمناطق الشاطئية التي سلخناها عن سورية الحقيقيّة إلى حضنها، ثم أن نجعل إدارتنا المركزية تتفهمها أخيراً، وإنْ لم نفعل ذلك فلن نكون قد أنهينا مهمتنا كلها.

سيبقى علينا إعادة ترتيب منظومة نقدية كانت كارثة على سورية، لأنها منعتهم من كل صفقة تجارية مع جيرانهم، وتخلّيصهم من جيش الموظفين من جميع الفئات الذين أقمناهم لديهم؛ إنهم كتبة لا يملكون الكفاءة عموماً، الذين، لو كانوا في فرنسة لشغلوا مراكز تافهة، بينما يتقاضون في سورية رواتب مهمة ومناصب سلطوية ويبدون متسلطين.

السوريون، الذين أقول لهم من دون لبس أو مواربة، وبحمّية في بعض الأحيان: أنَّ أخطاء خطيرة ارتُكِبَت، ولم تستطع حتّى الآلهة تجنبها، وأقول لهم إن الموظفين الفرنسيين: أناس متطورون، يُقدَّرون حسب كفاءاتهم الحقيقية والتي أعرف أنها متواضعة، لكن هؤلاء المعلمين الذين جلبتهم فرنسا، والقائم مقامين، والموظفين القانونيين من مختلف الوزارات والذين جعلناهم أسياداً لهم، الأكثر تسامحاً من هؤلاء يبتسم، والأكثر حمية يثور ضدهم. لقد ملَّ الجميع منهم وطلبوا مغادرتهم.

وعلى العكس، فهم يحيطون جماعتنا بكل اعتبار، واحترام، وإعجاب ويرون فيهم تفوقاً. رغم أن بعض هؤلاء الموظفين، عاملوا السوريين بقسوة، وبقسوة كبيرة أحياناً. اثنان أو ثلاثة كانوا قساة من دون رحمة، لكنهم حققوا عملاً مفيداً، فانتشرت سمعتهم، وعمَّت الصحراء، ووصلت إلى الخيمة البدوية المرقعة لتنشر الخشية بينهم. إنهم يخشونهم، لكنهم يُقدرونهم، وهذا هو سر السلطة في الشرق.

أعطونا رجالاً من هذه الطبقة، وبهذه القيمة ليصبح هؤلاء مستشارين يعلموننا ما نجهله، من أجل أن يساعدونا في إدارة أنفسنا، وحكم أنفسنا بأنفسنا. هذا ما يقوله السوريون لنا.

" لكن أعيدوهم إلى وطنهم، أعيدوا هؤلاء الموظفين الصغار الذين أردتم التخلص منهم بفرضهم علينا. لن نلقى أي جهد في تبديلهم. وهذا ما نحن متأكدون منه، ونعرف أننا لن نجد أسوأ منهم عندنا. سيكون لخلفائهم من السوريين، بنظرنا على الأقل، ثلاث مزايا، فهم لن يظهروا لنا احتقارهم، وهم سيتكلمون لغتنا، و. . . . سندفع لهم أقل ".

مثل هؤلاء الفرنسيين، عسكريون ومدنيون، وصلوا إلى المشرق مع الاعتقاد بأنَّ علينا أن نتكل على المسيحي. أما العناصر الأخرى من الشعب فهي لا تؤلف، بنظرهم، سوى كتلة مهملة، كتلة عديمة الشكل، كتلة كنا نستطيع معاملتها حسب مشيئتنا، من دون أن نهتم برأيها، أو شعورها، أو أمانيها.

وكان ذلك وهماً. وهماً خطيراً.

نعرف ما كلفنا الآخرون، في بلد الملكيات الكبيرة، التي يستمر فيها النظام الإقطاعي حتى عند المسيحيين، بينما أراد آخرون إقامة نوع من النظام الديمقراطي بالقوة.

كان هذا خطأ أيضاً. سورية لم تنضج بعد، ولن تكون ناضجة قبل قرن من الزمن ربما من أجل الديمقراطية.

وأكثر من ذلك، فالأكثرية الواسعة من سكانها، أكثرية، تختلط فيها النخبة والعامة، وتتطلع إلى العيش تحت ظل أمير يحكم في دمشق ويدير البلد، تحت سلطتنا، وبالاتفاق مع ممثلينا، يساعده مستشارونا التقنيون، باستثناء لبنان الذي قد يتمتع بنظام خاص.

قد يندهش السوريون من بعض الرتب، والمناصب، وقد يكونون مزهوين بأن ينتموا لشخصية متمتعة بالحرّية التي يمنحها لهم النسب

والثروة، ويستسلمون، بالأحرى، وبحماس أكثر لقانونه، وسلطته، حتى لا يشعروا، فيما بعد، بالذل بوصفهم مستعمرين من قبل الأجنبي.

هل يحق لنا أن نشارك في هذه الأمنية إذا كنا نعرف أنَّا بتصرفنا هذا قد نستطيع إتمام مهمتنا، ونكون، أخيراً، قد عُوِّضنا عن قلقنا، وخيبتنا، وسُدِّد لنا ما خسرناه؟

لا شيء يمنع ذلك. وعلى كل حال، فانكلترة، التي لم تحقق لها هذه السياسة الشيء الكثير؛ انكلترا التي ينمو نفوذها في حين يتناقص نفوذنا، ألم تخلق سابقة بتنصيبها ملوكاً في الدول التابعة لانتدابها وهؤلاء الملوك الذين يعبِّرون عن رغبة الشعب السوري في ملوك يشبهونهم؟

ألأننا نعيش في جمهورية سنشعر بوخزة ضمير عندما نقيم مملكة في بلد ليس لنا، والذي لم نحصل، بالنسبة إليه، سوى على مهمة مؤقتة، والذي، يبدو واضحاً، أنَّ سكانه يطالبون بهذا النوع من الحكم؟..

و بعد أن جعلنا من السوريين شهوداً على مناقشاتنا الداخلية وضحايا لها هل سنستمر في تصدير مفاهيمنا الاجتماعية إليهم وضد إراداتهم ؟

هل سنستمر، بأسلوب حكم عزيز علينا، في فرض الجمهورية عليهم، وخلق فروع لمنظمة حقوق الإنسان في مدنهم الرئيسة، كما كان يفكر ساراي؟

يريدون أميراً؟ أعطوهم أميراً بعد أخذ الحيطة من ذلك، وبعد أن نحصل على كل الضمانات من الشخصية المُرشَّحَة لحمل تاج ملوك سورية على جبينها.

كثيرون هم المرشحون أو قد يصبحون كثيرين، أعتقد أنني أعرف أن أحد الدوقات* الفرنسيين ينظر بطرف عينه إلى هذا البلد، حيث نال فيه آباؤه الصليبيون نصراً خالداً وحيث تُقلِع باتجاهه، إحدى قريباته، من أجل القيام بدعاية نشطة لصالحها.

لا أجهل أيضاً أنّ، في دمشق، اثنين من الأعيان، أحدهما من أصل جزائري**، لا ينتظر سوى إشارة ليصطفَّ في طابور الانتظار، وثانيهما في القاهرة ينتظر الإشارة، وأن في بيروت ابناً لأحد كبار أعيان الإسلام ينافسهما على هذا الشرف. ولن أخفي عليكم أن الأمير ميشيل لطف الله رئيس الرابطة السورية - الفلسطينية ينتظر في قصره الفخم في حي الجزيرة، على ضفاف النيل، وهو مستسلم بلذّة لحلمه بتأسيس سلالة - سلالة لطف الله الفجالة*** -، بأن يصبح ملكاً على البلد الذي أسهم بماله الخاص في حياكة مؤامراته، وفي إشعال الفتن، غير مضيع الأمل بطردنا من قبل عصاباته لذلك ينبغي مناداته باسمه ومنحه لقبه الهزلي.

لكن المشكلة هي في أنَّ الدوق الفرنسي كاثوليكي المذهب. والأمير القاهري المزيَّف من مذهب الروم الأرثوذكس. والاثنان المتوقعان المطالبان بالعرش هما في دمشق أما المطالب الآخر فهو في بيروت، وهؤلاء الثلاثة هم ومن دون شك من المسلمين الجيدين لكن هل وجدوا في سريرهم ما يكفي من الدنانير الذهبية على أمل الحصول، بشكل مشرف، على مقام الملوك في بلاد الألف ليلة وليلة، في تلك البلاد حيث السلطة، من دون

---

* الدوق Duc : لقب شرف يُطلق على حاكم الدوقية .

** هو الأمير سعيد الجزائري .

*** الفجالة اسم حي في القاهرة .

أبهة، ليست إلاّ خداعاً، وسخرية لا تدهش أحداً، فهي لا تدهش السيد الكبير، ولا تدهش الرئيس الديني، ولا حتى المثقف، ولا تدهش حتّى الإنسان العادي الذي يحمل قربة من جلد الخروف تسيل منتفخة على جانبيه، يطوف الشوارع ليبيع الماء؟

إذن. إذا، قررنا بعد تفحص طويل أن نضع ملكاً مسلماً، بالطبع، في دمشق، فلنختر ذلك الموهوب بنفوذ استثنائي، ذلك الذي عليه أولاً: أن يكون، غنياً جداً، عصرياً بتصوراته، وإن أمكن أن يكون متمرساً بالأعمال كما نمارسها نحن في الغرب، لكي، تأخذ البلد انطلاقتها الاقتصادية تحت حكمه.

الصورة كما نرى مركبة، وهي مغربة. والنسخة الأصلية ينبغي أن تستطيع اكتشاف ذاتها. وربما لا يكون ذلك إلاّ بالبحث عن ذلك الأصل.

ها نحن نتابع سياسة سراب ووهم طيلة سنوات ست، وها نحن نتوه في سورية، وفي لبنان، بحثاً عن حقيقة هاربة دائماً، جرَّتنا إلى طرق ، جرحتنا فيها الحجارة بقسوة ومزقتنا الأشواك، ولم نلق إلا الخيبات والأحزان.

وهذا هو البرهان الأكيد بأننا قد تهنا. فلنعد أدراجنا. ولنأخذ طرقاً أخرى. وإلا فإن لم نؤمن بالقدرة على تغيير المنهج، فلن نمضي أبداً إلى الأمام. لقد أرقنا ما يكفي من دمائنا، صرفنا ما يكفي من المليارات في هذه المغامرة. فلنترك السوريين واللبنانيين لمصيرهم، على الأقل، لأولئك الذين يرون أن يضطلعوا بمهمة وصايتهم.

ولنعد إلى بلدنا.

الفهرس

مقدمة: فرنسا في سورية / شهادة كاتب فرنسي	5
مسافر إلى سورية	15
سفينة « أبو الهول» الصاخبة أو اجتياز البحر الحليم	23
درس في السياسة المشرقية	33
جانوس بكركي الجليل أو الأوهام الضائعة	53
المفاجأة الحلبية أو ريكلو الذي أراد أن يصبح ملكاً	65
قضية ساراي	77
كاربييه في الجبل	93
بوح الأمير	99
ثورة الدروز	107
تشكيل حملة ميشو	113
كارثة السويداء	117
السيّد روبير مدير البيوت العسكريّة	125
ما الذي نتعلمه في دمشق	143
امتحان ضمير	153
هل يترتب علينا المغادرة، أم البقاء؟	173

بيير لامازيير

* أديب روائي وباحث فرنسي، من أعماله:
  - المشفى العائم ، (رواية)
  - عشاق بنيلوب، (رواية)
  - ميراي العنبات الثلاث، (رواية)
  - آخر تقليعات الحب، (دراسة)

فوزية الزوباري

* دكتوراه في الأدب من جامعة القدس يوسف (بيروت، لبنان)
* دكتوراه في الأدب من جامعة السوربون (باريس ، فرنسا)
* مدرسة في جامعتي البعث (حمص)، وتشرين (اللاذقية)
* تهتم بالبحث العلمي والترجمة

إنها سورية أو بلاد الشام ولكنها ليست سورية السياسية المعاصرة التي نعرفها الآن بل هي سورية المعاصرة ومعها لبنان المعاصر والاسكندرون قبل فصلهما عن سورية.

إنها سورية عام ١٩٢٦ أي بعد انهيار الثورة السورية وانسحاب وتوزع الثوار ما بين مصر والأردن والعراق، و.....ظهور الطامعين الكثيرين في عرش سورية، بدءاً من ميشيل لطف الله، الأمير المصرفي وحتى عبد الله بن الحسين وبينهما الكثيرون.

إنها سوريا التي لم يجف ماء الرحم العثماني الذي انبثقت منه بعد، والتي لم تعرف عبء بسطار الانقلابات بعد.

أنها سورية ولكن من خلال عيني مثقف فرنسي، روائي وصحفي يحاول أن يكون عادلاً في قراءته للفساد البيروقراطي الفرنسي، وللتعصب الديني لدى الجنرالات الفرنسيين.

إنها سورية من خلال عيني علماني ابن حقيقي للثورة البورجوازية الفرنسية المجيدة، ورؤية جديدة للباحثين عن هوية جديدة يتلمسونها.

كتاب وثيقة ضروري لاستعادة الكثير من الثوابت زمن الزلازال.

ISBN 2-84306-029- X
9 782843 080296